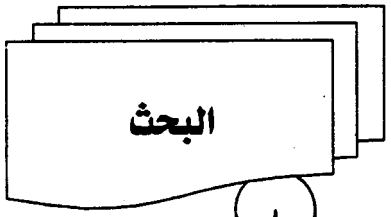

العاطفة وقيمتها الفنية
في
شعر الفتوحات الإسلامية

إعداد

عبد العاطي سيد حرب سالمان

الأستاذ المساعد في قسم الأدب والنقد في الكلية

لجنة التحكيم

أ.د/ زهـــــران محمـــــد جـــــبر عضو اللجنة العلمية الدائمة

أ.د/ عبـــد الـــصبور ضـــيف محمـــد عضو اللجنة العلمية الدائمة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المجاهدين وقائد الغر المحجلين سيدنا محمد النبي العربي الأمين، الذي أمره ربه بقتال أعداء الدين فقال له عزَّ من قائل: " فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً " (١)، فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الأبطال الذين لبوا نداء مولاهم في هذا الأمر الكريم: " قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ " (٢)، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد

فهذا بحث متواضع عن العاطفة في شعر الفتوحات الإسلامية الذي بين فيه قائله قوة إيمانه من خلال تقديمه لروحه في سبيل الله وكذلك ما كان عليه المسلمون جميعاً من حب للتضحية والفداء، وكذلك يؤكد قوتهم واقتدارهم على تحقيق النصر على عدوهم مهما كانت قوته، وظل هذا الشعر الإسلامي الأصيل يواكب مسيرة هذه الفتوحات التي استمرت عدة قرون، يعبر عنها وينطق بلسانها، ويخلد ذكرها منذ عصر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى الخلافة العباسية .

إن شعر الفتوحات الإسلامية يمثل شمولاً في الرؤية تميزه عن كثير من الموضوعات الأخرى، فهو لا يقتصر على فترة زمنية محددة، ومن ناحية المكان يشمل قطاعاً كبيراً من البلاد الإسلامية، ومن ناحية الشعراء لا يقتصر على شاعر بعينه ولا على طبقة معينة بل يضم أعداداً كثيرة تختلف في مشاربها وقدراتها الإبداعية .. ومن ثم اخترت هذا البحث وهو يقتصر على العاطفة الفنية: في هذا الشعر، لأن هناك من تناول هذا الشعر من حيث الجمع والدراسة، ولكن الجانب الفني ربما لم ينل كثيراً من عنان هؤلاء الدارسين، فأردت أن أكتب هذه السطور في الجانب المشار إليه، وقد بدأت بتعريف العاطفة ثم أقسام العاطفة ــ من حيث الصدق والكذب ــ القوة والضعف ــ السمو والانحطاط ... الخ .

والله أسأل التوفيق، فهو حسبي ونعم الوكيل

---

(١) سورة النساء من الآية رقم ٨٤ .

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٤ .

تعريف العاطفة:

جاء في لسان العرب " مادة (ع ط ف) .. العاطفة: الميل والشفقة [1] .. بينما يرى علماء النفس أن العاطفة هي: الحالة الوجدانية التي تتميز بالاستقرار والدوام، وبعدم العنف والثورة اللذين يميزانها عن الانفعال، ويترتب على وجود هذه الحالة الميل إلى الشيء أو الانصراف عنه .. "[2] .

أما العاطفة الأدبية ـــ وهي المقصودة بهذا البحث ـــ فقد وقف عليها الكثير من النقاد والكتاب فعند الأستاذ الناقد أحمد الشايب: " تلك القوة التي يثيرها فينا الأدب نحن القراء ... [3]، أي تأثير العمل الأدبي في نفس المتلقي، ومدى انفعاله به .

ويؤكد الدكتور أحمد بدوي، عناية النقاد العرب بهذا العنصر الرئيس من عناصر الأدب بقوله: " .. لقد أدرك العرب معنى العاطفة، وإن لم يضعوا لمعناها هذا الاسم الاصطلاحي، وأدركوا أن فقدان هذه العاطفة " العنصر " في الشعر يترتب عليه أن تصير القصيدة جافة، لأنها في تلك الحالة تخاطب العقل وحده، من غير أن تثير الشعور، وتبعث الوجدان، ويكون بذلك الشعر فيها أشبه بالمسائل العلمية والقواعد النظرية " [4] .

وقد سماها ابن رشيق في عمدته " قواعد الشعر" وقصرها على أربعة أنواع وهي:

(الرغبة والرهبة، والطرب والغضب)[5]، ومضى موضحاً ارتباط تلك العواطف بالأغراض الشعرية فقال: " مع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع [6] .

---

(١) راجع لسان العرب مادة (عطف) ج ص جمال الدين بن منظور .

(٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة ، وكامل المهندس ص ٢٤٢ ط / بيروت سنة ١٩٨٤ م .

(٣) أصول النقد الأدبي ـــ أحمد الشايب ص ١٨١ ط / نهضة مصر سنة ١٩٧٣ م .

(٤) أسس النقد الأدبي د . أحمد بدوي ص ٥٠٩ .

(٥) العمدة لابن رشيق القيرواني ص ١٢٠ ج ١ .

(٦) العمدة لابن رشيق القيرواني ج ١ ص ١٢٠ .

ولعل هذا الناقد بنى مقولته تلك على ما أثر من قولهم: " أشعر الناس: امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب .. " [1] مع اختلاف في شعراء هذه الرواية عند البعض .

وفي مجال دراسة العاطفة يطرح الأستاذ: أحمد الشايب تساؤلاً مهماً، فيقول: " ولكن أية عاطفة نعني بدراستها، وبيان مقاييسها النقدية ؟ " أعاطفة القارئ ؟ أم عاطفة الشاعر والكاتب والخطيب مثلاً ؟ أم عاطفة هؤلاء الأشخاص القصصيين الذين يبتكرهم ـــ الأديب ؟ " [2] .

ثم ينتهي إلى وجود شبه تلازم بين تلك النواحي الثلاث: " .. فمن المشكوك فيه أن يستطيع الأديب عرض العواطف القوية، أو بعثها في نفوس قرائه دون أن يحسها في نفسه قوية، ثم يتنفس عنها بهذا الأدب القوي التأثير والشاعر لا يبكيك إلا إذا استنفذ ماء شجونه، ولا يشجيك إلا إذا استطار الهوى بلبه، والعامل الفذ للظفر بالسلطان العاطفي على القراء هو انبعاث الشعر والنثر عن نفس منفعلة، صادقة الشعور .. " [3] .

ويقول الدكتور: محمد طاهر درويش عن العاطفة " هي تلك القوة النفسية التي تثيرها مؤثرات وميول خارجية مختلفة، فتظهر في صورة انفعالات شتى كالحب والبغض، والسرور والحزن، .. وهي بهذا من دواعي الشعر التي تهيجه، وينابيعه التي ينبجس منها، فمن كان ذا فطرة شاعرة وموهبة أدبية، استحثته إلى قول الشعر دواعيه، وأمدته فيه عواطفه، وهو في ظل هذه العاطفة أصدق شعوراً وأجمل تعبيراً، وأغزر معيناً .. " [4] .

ومن ثم فعنصر العاطفة أبقى في النص من العقل، ذلك أن العقل ينتج علماً، وهو يتغير كل يوم ويتبدل، بينما العاطفة عنصر ثابت قلما يحدث فيه التغيير أو التبديل مثل العلم، والدليل على ذلك أن عاطفة الحزن على ميت مثلاً، هي منذ أن فقد الناس أحبابهم بالموت مهما اختلفت وسائل تعبير الناس عن هذا الحزن وكذلك عاطفة الفرح والرضى والإعجاب، لكن هذا بشكل نسبي .

---

(١) المرجع السابق ١ / ٩٥ .

(٢) راجع: أصول النقد ، د . أحمد الشايب ص ١٨٠ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ١٨١ وما بعدها .

(٤) في النقد الأدبي عند العرب د . محمد طاهر درويش ص ٢١٩ .

وهناك بعض الدوافع والانفعالات التي عرفها الشعراء، وأقرها النقاد، واعترفوا بها، وعرفوا صلتها بالشعر والأدب، وأثرها فيما تبعث في فنونه من قوة وحيوية، " فمع الرغبة ــ مثلاً ــ يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع ... " (١) .

وأدركوا كذلك أن بعض العواطف قد غلب على بعض الشعراء، دون سواها ولهذا امتاز شعرهم فيما يتصل بهذه العواطف من أغراض الشعر .. فإذا كانت العاطفة حارة صادقة وجدت عندها أروع آيات الشعر، يشير إلى هذا جرير إذ يصرح لو أنه أتيح له أن يعشق لنسب نسبياً إذا سمعته العجوز بكت على ما فاتها من شبابها .." (٢) .

ومن ثم وكما يقول أحد الباحثين " العاطفة هي التي تبعث في الشعر روح الحياة، فبقدر ما يتوهج صياغته من انفعال يسري في كيان الشعر، وينفث فيه الحرارة والحياة، يكون قيمة العمل الفني وتقدير النقاد له ... " (٣) .

وهذا ما يؤكده باحث آخر بقوله: " .. إن العاطفة هي أقوى عنصر يهب الخلود للقطعة الأدبية، ويلقيها في روع الناس إلقاء، لا يبلى بكرٌ الجديدين " (٤) .

وقد يكون في هذا مبالغة لأن خلود النص الأدبي يعتمد على عدة جوانب من بينها الجانب العاطفي في النص، ومن المعروف أن العاطفة شيء مختلف عن الانفعال، وإن بدا أنهما شيء واحد، ويمكن أن يعد الانفعال هو المستوى الأول للتأثر، لكنه لا يكفي لإبداع النص الشعري المتميز أو خلوده، وهذا التداخل الشديد بين العاطفة والانفعال يجعل من الممكن القول إن العاطفة هي مرحلة الشعور اللاحق للانفعال، لأنها تتميز بالاستقرار والدوام كعاطفة الأبوة والأمومة مثلاً، لكن الانفعال يتسم بالعنف والتوتر والتغير كتأثر الإنسان من عبارة معينة تثير فيه سلوكاً معيناً، وقد عرفه علماء النفس بأنه " حالة من التهيج والاضطراب، تتحيز لشعور قوي، وتؤلف في العادة دافعاً نحو شكل محدد من أشكال السلوك وأنماطه ... " (٥) .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨ .

(٢) في النقد الأدبي د . محمد طاهر درويش ص ٢٢١ ، والأغاني ج ٨ ص ٤٣ .

(٣) راجع: بين الأدب والنقد د . محمد نايل ، و د. محمد خفاجي ص ٤٢ .

(٤) الكامل في النقد الأدبي: كمال أبو مصلح ص ٧٢ ، المكتبة الحديثة ، بيروت ــ لبنان .

(٥) موسوعة علم النفس د . أسعد رزوق ، ص ٥٢ ، بيروت .

لكن " في كتاب النقد الأدبي عند العرب " ينفي صاحبه معرفتهم لهذا المصطلح في القديم إذ يقول " لم يعرف العرب كلمة (العاطفة)" فهي من مصطلحات علم النفس الحديث، ولكنهم عرفوا حقيقتها ومدلولها وسموها (قواعد الشعر) وقد وضع النقاد لها مقياساً هو الصدق والكذب، وتكلموا عن قوة العاطفة وعمقها، وعن تنوع العواطف لدى بعض الشعراء دون بعض، ولاحظوا استمرار العاطفة على قوتها في القصيدة كلها أحياناً وفتورها في بعض أجزائها أحياناً أخرى، وما قد يؤدي إليه ذلك من اختلاف في نسج القصيدة قوة وضعفاً، وأسراً وتفافاً، باختلاف حال العاطفة، وكذلك عرفوا العاطفة الصادقة والكاذبة، وتبينوا صدق هذا المقياس فيما راقهم من شعر الغزل، وما لم يرقهم منه، حتى إن بعضهم أرجع عدم رضاه عنه إلى العاطفة غير الصادقة، وقال " والله ما أحبها ساعة قط " [1] .

وقد ظهرت بعض الدراسات العلمية التي توجب على الناقد الأدبي أن يهتم بعنصر العاطفة في نقده ودراساته وأن يعتني بها، ومنها على سبيل المثال: الدراسة التي قدمها الدكتور: محمد خلف الله أحمد تحت عنوان: من الوجهة النفسية في دراسة الأدب والنقد، وكذلك الدكتور سامي الدهان في دراسته التي تحت عنوان: " علم النفس والأدب " ولا ننسى تلك الدراسة القيمة للدكتور عز الدين إسماعيل وهي " التفسير النفسي للأدب .

وبعد هذا التعريف للعاطفة عند علماء اللغة والأدب، نتكلم عنها في شعر الفتوحات الإسلامية والجهاد في سبيل الله، لنرى مدى صدق هذه العاطفة وقوتها وسموها عند هؤلاء الرجال الذين باعوا أنفسهم وأموالهم واشتروا بها الجنة: " وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ " [2] .

وحتى لا يطول بنا الحديث سنتكلم عن العاطفة في هذا الشعر المشار إليه من خلال محاور ثلاثة: أولها: صدق هذه العاطفة أو كذبها، ثانيها: قوتها أو ضعفها، ثالثها وآخرها: سموّ هذه العاطفة أو انحطاطها، لأن العواطف المعنوية: أسمى من العواطف الحسية .

---

(١) في النقد الأدبي عند العرب د . محمد طاهر درويش ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، وما بعدها .

(٢) سورة التوبة من الآية: ٧٢ .

١ ـ فالمحور الأول وهو " الصدق والكذب في العاطفة ":

المراد بصدق العاطفة أن تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع [١]، ومن هنا يمثل عنصر الدافع إلى القول والسلوك أساس الحكم على العاطفة بالصدق أو الكذب، فإذا كان حقيقياً غير زائف ولا مصطنع فإن العاطفة تكون صادقة، وإن لم يكن كذلك فإنها مزيفة وكاذبة، ومن ثم فرقت العرب بين بكاء الثكلى والنائحة، فجاء المثل " ليست النائحة كالثكلى .. " [٢] .

فالدافع لدى الثكلى ـــ وهي الأم الحقيقية للفقيد ـــ حقيقي، ولكن لدى النائحة ـــ وهي التي تأخذ الأجرة على هذا البكاء ـــ متكلف ومزيف، رغم أنها تظهر من البكاء أشده، ومن الحزن أعظمه، كلما أخذت أجراً كبيراً .

إن معرفة البواعث المثيرة إلى قول الشعر، نضع أيدينا على مدخل واسع، يمكن من خلاله الحكم على عاطفة الشاعر بأنها صادقة أو كاذبة، ففي الشعر التالي الذي قاله عبد الله بن رواحة، حين بلغت الفدائية ذروتها، وأخذ الراية بعد صاحبيه ـــ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب ـــ ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يسترل نفسه بمثل هذه العاطفة الصادقة لأن باعثها كان أقوى وثمنها أغلى وهو الجنة، يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ∴ طائعاً، أو فلتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة ∴ مالي أراك تكرهين الجنة ؟
قد طالما قد كنت مطمئنة ∴ هل أنت إلا نطفة في شنة [٣]

إنه الإخلاص لله ـــ عز وجل ـــ وفدائية صادقة في الجهاد في سبيل الله نابعة من الإيمان الصادق والعقيدة الصحيحة، بأنه سيموت مهما طالت أيامه، فليكن موته شهادة، هذه واحدة، والأخرى التي زادت هذه العاطفة صدقاً، أن الشهداء أحياء عند الله يرزقون ففي الشهادة حياة مصداقاً لقوله تعالى: " وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ

---

(١) أصول النقد ـــ أحمد الشايب ص ١٩٠ .

(٢) مجمع الأمثال للميداني: ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) راجع في ذلك تاريخ الطبري ج ٣ ص ٧٧ ، وأسد الغابة ج ٣ ص ١٥٩ ، والاستيعاب ج ٢ ص ٢٩٤ ، والسيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ، ٤ ص ١٢٠٦ وما بعدها .

يُرْزَقُونَ ... " [1]، وهذا ما صرح به الشاعر في شعر آخر وفي نفس المعركة مخاطباً لنفسه مشجعاً لها:

يا نفس إلا تقتلي تموتي ∴ هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت ∴ إن تفعلي فعلهما هديت [2]

قال صاحب السيرة: " يريد صاحبيه زيداً وجعفراً، ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق من لحم، فقال: شد بهذ صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت فأخذه من يده، ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه، فتقدم فقاتل حتى قتل ! ومن قبله جعفر الطيار في نفس المعركة، عندما اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، وقاتل القوم حتى قتل، رضي الله عنه ــ وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها ∴ طيبة وبارداً شرابها

والروم، روم قد دنا عذابها ∴ كافرة بعيدة أنسابها

عليَّ إذ لاقيتها ضرابها [3]

ولم ينكر أحد على جعفر ــ فعله هذا ــ فدل على جوازه إلا إذا أمن أخذ العدو له، قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفر أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء، ويقال: إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين [4] .

هذا صدق العاطفة الحقيقي الذي نبع من الإيمان والإخلاص، لأن الشاعر كان يحرص على الشهادة، بل ويتمناها، وبعدها نعمة من عند الله، وهذا ما نجده عند عبد الله بن رواحة في قوله، وذلك قبل بداية المعركة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ∴ وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (١٦٩) .

(٢) السيرة لابن هشام ، مرجع سابق ص ١٢٠٦ .

(٣) نفسه ، ص ١٢٠٥ .

(٤) راجع: البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٦٨٩ وما بعدها ، ط / دار الغد العربي .

أو طعنـــة بيدي حران مجهـــزة ∴ بحربة تنفذ الأحشاء والكبـــدا

حتى يقال إذا مروا علي جدثي ∴ أرشده الله من غازٍ وقد رشـــدا

وذكر ابن كثير في مناسبة هذه الأبيات " .. قال ابن إسحاق: فلما حضر خروجهم ودَّع الناس أمراء رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسلموا عليهم، فلما ودّع عبد الله بن رواحة مع من ودع بكى، فقالوا: ما يبكيك يابن رواحة ؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: [وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً] (١) فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود ؟، فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة " (٢)، الأبيات المذكورة وفيها يسأل الله أن يكون صادقاً في شهادته، حتى يفوز بالمغفرة والرضوان من الله تعالى، ونراه يقدم الضرب على الطعن، لأن الفارس فيه يكون أقرب للخصم، فالضرب للسيف، والطعن للرمح، وما أجمله إذا كان في سبيل الله، فهو خير من الدنيا وما فيها، وهذا ما بينه عبد الله بن رواحة في قصته هذه، عندما تخلف ليصلي الجمعة مع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم يلحق بأصحابه، فقال: صلى الله عليه وسلم: " لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها..." (٣).

ومن الشعر الذي يعد لوناً متميزاً ــ في هذا الصدد ــ وتظهر فيه العاطفة الصادقة شعر الرجز في الحرب، لأن الشاعر فيه تفيض مشاعره في تلك اللحظات الحاسمة من حياته، ويدرك فيها أن المسافة بينه وبين لقاء الله والفوز برضوانه قصيرة جداً، وهذا ما يفسر لنا جانب الصدق الحقيقي الذي ينبعث من سبب صحيح غير زائف، كما رأينا في شعر عبد الله بن رواحة ــ رضي الله عنه ــ السابق، وكذلك قول خالد بن الوليد ــ رضي الله عنه ــ وهو يرتجز عندما كان يقاتل الروم:

---

(١) سورة مريم آية (٧١) .

(٢) راجع: البداية والنهاية ج ٢ ص ٦٨٦ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٦٨٧ .

أضربهـــم بصـــارم مهنـــد
ضرب صليب الدين هادٍ مهتد
لا واهن القلب، ولا مفند [1]

ومن صدق العاطفة، ما نراه في هذا النص الذي قاله عبد الله بن سبرة الخرشي، حين قطعت يده، في أثناء جهاده مع الأعداء، والدافع والمثير هنا، والذي جعل المقاتل يلقي بنفسه في مثل هذا الموقف، ويعبر بمثل هذه الحرارة، وتلك العاطفة إنما هو مثير حقيقي، ودافع صادق، وإخلاص لا يشوبه نفاق، وقد تأثر الشاعر بهذا الموقف تأثراً كبيراً، فصاغ هذه المشاعر وتلك الأحاسيس ـــ في هذه القطعة الأدبية الرائعة، التي تعكس بصدق وجلاء، موقفه بعد أن قطعت يده، وفصلت عن جسده، في أثناء اشتباكه مع الأعداء، حيث يقول مصوراً ذلك [2] :

ويل أمِّ جارٍ غداة الـــروع فارقني
أهونْ عليَّ به إذ بان فانقطعـــــــا
يمنى يديَّ غدت، مني مفارقـــــة
لم أستطع يوم فلطاس لها تبعـــــــا
وما ضننت عليهـــا أن أصاحبهـــــا
لقد حرصت على أن نستريح معـــــا
وقائلٍ غاب عـــن شأني وقائـــــلة
هلا اجتنبت عدوَّ الله إذ صرعـــا ؟
(وكيف أتركه ؟) يمشـــي بمنصـــله
نحوي ؟، وأجبن عنه بعد ما وقعـــا
ما كان ذلك يوم الـــروع من خلقي
وإن تقارب مني الموت واكتنعـــا [3]

---

(١) راجع: تاريخ فتوح الشام ، محمد بن عبد الله الأزدي ص ١٣٦ .
(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٥٠ / ١١ ، ١٢ ، رقم الترجمة ٦١٧٧ .
(٣) البيت الأخير [ويل أمه] ولكن أدغمها لضرورة الوزن .

ويلُمّه فارساً ولّـت كتيبتـــــــه

حامَي، وقد ضيعوا الأحساب فارتجعا

يمشي إلى مستميت مثله بطـــل

حتى إذا مكّنا سيفيهما امتصعـــــا

كل ينوء بماضي الحد ذي شطـــب

جلّ الصياقل عن دريَّة الطبعـــــــا

حاسيته الموت حتى اشتف آخـــره

فما استكان لما لاقى وما جزعـــــا

كأن لمته هـــداب مخمـــــــــلة

أحم أزرق لم يمشط وقد صلعـــــا

فإن يكن أرطبون الروم قطعهـــــا

فقد تركت بها أوصاله قطعـــــــا

وإن يكن أرطبون الروم قطعهـــــا

فإن فيها بحمد الله منتفعـــــــا

بنانتين وجذموراً أقيم بهـــــــا

صدر القناة إذا ما آنســوا فزعـــا [1]

إنها ثقة الفارس المسلم الذي باع نفسه في سبيل الله، واشترى بها الجنة فما أغلاها من سلعة، وما أرخصها من ثمن .

وقد أنصف المسلم خصمه، لأنه بيَّن لنا قوته في الحرب، وشجاعته في القتال، واستماتته في أرض المعركة، فهو مثله بطل صنديد " يمشي إلى مستميت مثله بطل " .

وفارسنا سقاه الموت، وجرَّعه المنية فما استكان وما ضعف وما جزع لما لاقاه من شدة هذا الفارس، وفي النهاية ينتصر عليه المسلم، وإن كان ثمن هذا النصر دفع بعض أجزاء من جسمه وهو بتر يده .

---

(١) انظر: عيون الأخبار: ج ١ ص ١٩٢ ، وما بعدها ، وانظر الأمالي لأبي علي القالي ، ج١ ص٤٧ وما بعدها ، ط / دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤ هـ .

ومن هنا يتضح لنا عمق هذه العاطفة الصادقة، والتي وهبت لمثل هذا النص قيمة خالدة، لأن صاحبها كان يجاهد في سبيل الله، ويناصر الحق، وانتصاره على الأعداء يثير فرحاً شديداً، يوقظ الإعجاب، والوصف الرائع البديع ٠

وكما سبق أن أشرنا، متى كان هناك سبب قوي، وداع أصيل، ومؤثر حقيقي صادق ٠٠ هيّج انفعالات أصيلة صحيحة، تجعل الأدب مؤثراً، وباعثاً في نفوس القراء عواطف صحيحة صادقة، كالتي في نفوس الأدباء، أما إذا كان الباعث تافهاً أو خادعاً، كان الأدب سطحياً لا أثر له، ولا بقاء ويصبح في عداد الموتى ٠

ونظير ذلك نجده في شعر حياض بن قيس القشيري ــ رضي الله عنه ــ حينما قطعت رجله في معركة اليرموك، فأنشد وهو ما زال في أرض المعركة: (١)

أقدم حذام إنها الأســاورة ∴ ولا تغــرنك رجــل نــــادرة

أنا القشيري، أخو المهاجرة ∴ أضرب بالسيف رؤوس الكافرة

وفي اللحظات الأخيرة من الحياة، نجد أحد هؤلاء الشعراء يعبر عن عاطفة الإنسان، وهو يجود بنفسه، فنرى الفخر، ونشاهد الاعتزاز، لأنه كان مقداماً، غير متردد، إنه في هذا الموقف يبذل حياته في سبيل الله ــ عز وجل ــ وطلباً لرضاه، وحباً في نيل مرتبة الشهادة، والتي يعدها الحياة الأبدية الخالدة، التي أعدها الله تعالى لمن استشهد في سبيله، يقول فروة بن عمرو الجذامي ــ رضي الله عنه ــ عندما أجمعت الروم على صلبه، على ماء لهم بفلسطين يقال له عفراء:

ألا هل أتى سلمى بأن حليلهــا ∴ على ماء عفراء فوق إحدى الرواحل

على ناقة لم يضرب الفحل أمها ∴ مشذبة أطرافهــا بالمناجــــل (٢)

ولما قدموه ليقتلوه، قال:

بلّغ سراة المسلمين بأنني ∴ سلم لربي أعظمي ومقامي (٣)

---

(١) انظر: فتوح البلدان: للبلاذري ج ١ ص ١٦٢ ، الإصابة ج ٢ ص ١٨٧ ، الترجمة: ٢٠٣٣ ٠

(٢) راجع: البداية والنهاية ج ٥ ص ٨٦ ، الروض الآنف ج ٧ ص ٤١٧ ٠

(٣) السابق ج ٧ ص ٤١٧ ٠

ومثل هذه النماذج التي قالها الشعراء الفرسان تعد إعلاناً عن معالي الهمم، واعتزازاً بالصفات والمزايا الفردية، لأنهم خاضوا غمار المعارك بأنفسهم، وبذلوها هينة رخيصة في سبيل الله، وانتظاراً للجزاء والثواب من الله تبارك وتعالى، فلا غرو أن تأتي عاطفتهم بهذا الصدق، لأن الباعث عليها عظيم، والدافع إليها قوي وأصيل .

وإذا تركنا هؤلاء الشعراء الأبطال الذين خاضوا المعارك بسيوفهم، وعاشوها في أرض الواقع، وأتينا إلى بعض الشعراء الذين لم يشتركوا فيها، ولم يستخدموا السيف أو السلاح المادي، ولكنهم تأثروا بها تأثراً كبيراً، في أشعارهم، فجاءت عاطفتهم صادقة وقوية، ولا تقل عن سابقتها، والتي اشترك أصحابها في هذه الحروب .

ولنأخذ على ذلك بعض الأمثلة، ولتكن في رثاء من استشهد من المسلمين في هذه الفتوحات، وتلك المعارك، يقول حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ عندما رثى شعراء مؤته [1]:

رأيت خيـــار المســـــلمين تواردوا
شعوبـــــاً وقد خلفت فيمن يؤخـــــــر
فلا يبعـــــدن الله قـــــتلى تتابعوا
بمؤتة منهم ذو الجناحـــين جعفـــــــر
وزيد وعبد الله حين تتابعـــــــوا
جميعاً وأســـــباب المنية تخطـــــــر
غداة غدوا بالمؤمنـــــين يقودهم
إلى الموت ميمون النقيبة أزهـــــــر
فطاعن حتى مات غير موســـــد
بمعترك فيـــــه قنا متكســـــــــر
أغر كنصـــل السيف من آل هاشم
أبيٌّ إذا سيم الظلامة مجســـــــــر
فصار مع المستشهدن ثوابـــــــه

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ص ١٠٨ وما بعدها .

جنان ومتـــــلف الحدائق أخضـــــــــر

وكنا نـــــــرى في جعفر من محمد

وفاءً، وأمراً حازماً حين يأمـــــــــر

ومازال في الإســـلام من آل هاشم

دعائم عز لا يزلن ومفخـــــــــــــر

هم جيل الإسلام والناس حولهـــــم

رضام إلى طود يـــروق ويقهـــــــر[1]

وإذا أردنا فهم هذا النص، فلابد من معرفة الدافع، فإذا كان ذاتياً، فإنه لا يحتاج إلى وصفه بأنه حقيقي أو غير حقيقي، لأنه لا يكون إلا حقيقياً في هذه الحالة، أما الدوافع الخارجية التي تؤثر على الإنسان، فإنها تختلف في قوتها وضعفها، وفي تجاوب الشاعر لها رغبة أو رهبة .

ولذا فلابد من الإفادة من معرفة العلاقة القائمة بين الشاعر وبين المتوفى (الشهيد) والذي قدم روحه في سبيل الله، ودفاعاً عن غيره من المسلمين ليعيشوا بعده في عزة وكرامة، ففي النص السابق ــ مثلاً ــ نجد الدافع هنا حقيقياً، ذلك أن العلاقة القائمة بين أفراد الصفوة المختارة من هذه الأمة، والتي كان لها شرف الصحبة لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هي علاقة تتصف بالحب في الله، وهي أوثق عرى الإيمان فقد كان بينهم من التواد والتراحم، ما عزّ أن يكون له نظير، فلا يمكن أن تكون العاطفة في ذلك المقام إلا صادقة كل الصدق، نقية كل النقاء.

ومن العجيب أن حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ قد رثى قادة الجيش في مؤتة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة ــ رضي الله عنهم ــ قبل أن يستشهدوا وبيان ذلك ــ كما جاء في بعض كتب السير ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعث زيد بن حارثة الكلبي مولاه إلى مؤتة، فقال: إن حدث بزيد حدث، فعلى الناس جعفر، فإن حدث به حدث، فعلى الناس عبد الله بن رواحة فذكروا أن أبا بكر قال: حسبك يا رسول الله

---

(١) راجع: ديوان حسان بن ثابت ص ١٠٨ وما بعدها .

[1]، فقال حسان بن ثابت:

ولقد بكيت وعز مهلك جعفـــــــر
حِبّ النبي على البرية كلهـــــــا
ولقد جزعت وقلت حين نعيت لـــي
من للجلاد لدى العقاب وظلهـــــا
بالبيض حين تسل من أغمادهـــــا
يوماً وإهال الرمـــاح وعلهـــا
بعد ابن فاطمة المبارك جعفـــــــر
خير البرية كلها وأجلهـــــــا
رزءاً، وأكرمها جميعاً محتـــــــذاً
وأعزها متظلمـــاً وأذلهـــــا [2]

ومن المعروف أن غرض الرثاء، من أبرز الأغراض الشعرية في صدق العاطفة في الشعر عامة، وفي شعر الفتوحات الإسلامية خاصة، فكثير من أبيات الرثاء ــ مثل التي قالها حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ تكشف لنا عن حزن عميق، وتأثر كبير لفقد ذلك الشهيد، " وقد قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم ؟ قال: لأننا نقولها وأكبادنا تحترق .. " [3] .

ويرثي البحتري أبا سعيد الثغري بقصيدة، يحس فيها القارئ بوهج العاطفة وحرارتها، وصدق الشاعر في مشاعره والتي تنبع من صميم فؤاده نحو ذلك القائد البطل، الذي كان له صولات وجولات في محاربة أعداء الإسلام، يقول:

انظر إلى العليـــــاء كيف تضـــــام
ومآتم الأحســـــاب كيف تقـــــــام
حطت سروج أبي سعيد واغتـــدت

---

(١) راجع: البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٥ ، وكذلك السيرة النبوية غزوة مؤتة ص ١٢٠٠ .
(٢) راجع: ديوان حسان بن ثابت ص ١٩٧ وما بعدها ، الأستاذ عبداً مهنا .
(٣) البيان والتبيين: الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج ٢ ص ٣٢٠ .

أســـيافه دون العـــدو تشـــــــام

خَبرٌ ثنى رُكَب الركاب فلم يـــدع

للركب وجـــه ترحل فأقامـــــــوا

ورزينة حمل الخليفة شطرهـــــــا

والمســـلمون وشطرها الإســـــــلام

من يعتفي العافي بهمته ومـــــن

يأوي إليـــه المعتم المعتـــــــــام[1]

أين السحاب الجود والقمـــر الذي

يخـــلو الدجى والضيِّم الضـــــــرغام

ومثل هذا الشعر يكشف عن مدى صدق عاطفة الشاعر، وحرارتها، وهذه المشاعر التي أراد صاحبها البوح بها بدون رغبة أو رهبة، لأنها نبعت من صميم فؤاده وسويداء قلبه، وهذا دافع حقيقي لأن العلاقة القائمة بين الشاعر وبين من رثاه، علاقة تراحم ومودة حقيقية، فلا يمكن أن تكون العاطفة إلا صادقة .

ومن الشعر الذي ينبع من مؤثر حقيقي، ما قاله أبو فراس الحمداني، حينما كان في الأسر، وهو شعر ينطق بالألم والغربة والوحشة، وتبدو فيه الألفاظ أنيناً يلامس شغاف القلب، استمع إليه وهو يقول:

يعز على الأحبة بـ " الشـــآم "

حبيب بات ممنوع المنـــــــــام

تبيت همومه والليـــــــل داج

تقلـــبه على وخز السهـــــــام

يؤول به الصـــــباح إلى صـــباح

---

(١) ديوان البحتري ج ٣ ص ١٩٤٥ ، مفردات: شام سيفه يشمه: أغده واستله (من الأضداد) وهي هنا بمعنى أغمدت ، العافي: طالب العطاء ــ المعتم: الذي دخل العتمة ، والمعتام الذي يختار القيمة وهي: خيار المال .

ويسلمـــه الظـــلام إلى ظـــــلام

وإني للصـــبور على الرزايـــــا

ولكن الـــكلام على الـــــــكلام

جروح لا يزلن يردن مـــــني

عـــلى جرح قـــريب العهـــــد دام

ولم يبق الرمي وإن تراخـــــت

ليـــاليه على مـــر السهـــــام [1]

وبالله الدفاع، وأي سهـــــم

أحـــــاول دفعـــــه والله رامٍ

وحين نتأكد من وجود عنصر الصدق في العاطفة فإن القصائد من هذا النوع، يحس فيها القارئ أنها قطعة من نفس صاحبها في صدق تعبيرها عن معاناته، وفي رسم صورة حية ونابضة لتجربته، ومن هنا صحَّ القول: بأن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان " [2] .

فحين علم أبو فراس الحمداني بأن أمه، قد سألت سيف الدولة، الفداء لابنها فلم يجبها، تألم الشاعر لذلك غاية الألم، وقال:

يا حســـرة ما أكاد أحملهـــا ∴ آخرها مزعج وأولهـــــا

عليـــلة بالشـــآم مفردة ∴ بات بأيدي العدا معللهـــا

تمسك أحشاءها على حرق ∴ تطفئها، والهموم تشعلها [3]

وتواصلت أبيات هذه القصيدة التي بلغت خمسة وأربعين بيتاً، في جو يخيم عليه الحزن والحسرة، وبرز فيها عنصر الذاتية، فإذا بكثير من أبياتها تتحول إلى مناجاة بين الشاعر وبين نفسه، وآمال، وأمانٍ عذبة وجميلة تطوف بخياله، وله العذر في ذلك، فإن شدة الأسر جعلته يعقد موازنة

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٦٠ ، شرح وتقديم عباس عبد الساتر ، ط / دار الكتب العلمية .

(٢) البيان والتبيين: الجاحظ ، ج ١ ص ٨٣ وما بعدها .

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني ج ٢ ص ٣٧١ وما بعدها .

بين ما آل إليه أمره من العناء والألم، وبين حاله قبل الأسر عندما كان في عزة وسيادة في قومه وأهله.

وفي مثل هذه القصيدة تحس بأن عنصر الصدق هو لحمة النص وسداه، واستمع إليه في هذا النداء الحزين:

يا واسع الدار، كيف توسعهـــــا
ونحن في صخـــرة نزلزلهـــــا
يا ناعم الثوب، كيف تبـــــدله
ثيابنا الصوف ما نبدلهـــــا
يا راكب الخيـــل لو بصرت بنـــا
نحمل أقيادنـــــا وننقلهـــــا
رأيت في الضر أوجهـــاً كرمت
فارق فيك الجمال أجلهـــــا
قد أثر الدهر في محاسنهـــــا
تعرفها تـــــارة وتجهلهـــــا [1]

وحتى شعر المديح الذي يغلب على معظمه طابع التكسب، فإننا نجد في بعضه عاطفة صادقة، وذلك عندما يصدر الشاعر فيه عن حب لممدوحه، وإعجاب به وخاصة إذا كان هذا الشعر ينبع من مؤثر حقيقي، ومنه ما قاله ــ على سبيل المثال ــ أبو الطيب المتنبي في مديحه لسيف الدولة الحمداني، في وقعة " الحدث " مع الروم، والتي بدأها بقوله [2]:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ∴ وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها ∴ وتصغر في عين العظيم العظائم

وهي قصيدة مشهورة، ومنها مخاطباً ممدوحه:

وقفت وما في الموت شك لواقـــف

---

(١) راجع: ديوان أبي فراس الحمداني ، ج ٢ ص ٣٣٣ .

(٢) ديوان المتنبي ج ١ ص ٣٨٥ ، وما بعدها .

كأنك في جفن الردى وهو نـــــائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمـــــة
ووجهك وضاح وثغرك بـــــاسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهـــى
إلى قول قوم: أنت بالغيب عـــالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة
تموت الخوافي تحتهـــا والقـــوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائـــب
وصار إلى اللبات والنصر قـــادم
حفرت الردينيات حتى طرحتهـــا
وحتى كأن السيف للرمح شـــاتم
ومن طلب الفتح الجليـــل فإنمـــا
مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم [1] .

وهنا يصور الشاعر هذه الحرب المقدسة، والتي ينطلق منها الباعث الشعري، فهي مناط اختبار، فاقت السلاح والناس، ولم يثبت إلا كل سيف بتار، وكل رجل شجاع، وهنا يقف سيف الدولة في الميدان محارباً، لا يهاب الردى، ولا يبالي الموت، ويشهد في سرور وغبطة، هزيمة أعدائه، وهم في حالة من الذلة والمهانة، يلعنون جراحهم، بل يتجاوز هذه الجرأة وهذا الثبات إلى ما قيل عنه: أن سيف الدولة مطلع على الغيب، عالم بنتيجة المعركة التي يخوضها، حتى لا يؤخذ على المتنبي هذا الغلو في الحديث عن علم الغيب ونسبته إلى البشر كسيف الدولة، نسبه المتنبي إلى غيره من الناس، وهذا يدل على ذكاء الشاعر حتى لا يتهم في عقيدته، ولذلك قال:

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى . . إلى قول قوم: أنت بالغيب عالم

ولقد كان من بطولة الممدوح أن ضم جناحي جيش عدوه على قلبه في سرعة خاطفة، وكانت عدته في ذلك السيوف الخفاف الصوارم، وهي عدة من يطلب الفتح الجليل، والنصر المبين.

(١) راجع: ديوان أبي الطيب المتنبي ج ١ ص ٣٨٦ وما بعدها .

ـــ وكما سبق أن أشرنا ـــ فالمناسبة وفهم ظروف الشاعر النفسية والاجتماعية تضيء للدارس جوانب النص الشعري، وتفسر كثيراً من ظواهره الفنية، فإذا كان الشاعر في مأزق فإنه سيمدح ممدوحه، ريثما يفلت من قبضته ثم يظهر بعد ذلك عاطفته الحقيقية نحوه، كما فعل هذا الشاعر (المتنبي) مع كافور الإخشيدي، الذي مدحه، ثم هجاه بعد ذلك أقذع هجاء .

" لا تشتري العبد إلا والعصا معه .·. ..... "

لكن ذلك الشاعر نفسه كان محباً لسيف الدولة الحمداني معجباً به، وكان يخلص له الود، وحتى عندما رحل عنه، لم يمنعه ذلك أن يستبقي محبته في قلبه، ويقول في شأن ذلك ميميته الرائعة، ومنها:

واحرَّ قلبـــاه ممن قلبـــه شـــــيم
ومن بجسمي وحالي عنده ســـــــــقم
مالي أكتم حباً قد برى جســـــــدي
وتدعي حب سيف الدولة الأمـــــــــم
إن كان يجمعنا حبٌ لغرتـــــــــه
فليت أنا بقد الحـــب نقتســـــــــم
قد زرته وســـيوف الهند مغمـــــدة
وقد نظـــرت إليه والســـــــيوف دم [1]

وهذه المودة التي يكنها المتنبي لممدوحه، قد أغرت كثيراً من الباحثين بالوقوف عندها وتحليلها، ودراستها، وبخاصة حين رأوه يخاطب سيف الدولة بالصديق، ولعل هذا ينتهي بنا إلى القول بأن عاطفة الشاعر نحو ممدوحه هنا صادقة [2] .

وبقدر تلك المودة التي يكنها صاحبها لممدوحه، وهو سيف الدولة الذي اشتهر ببسالته ودفاعه عن الإسلام بصدق وإخلاص، فأصبح ـــ كغيره ـــ من قادة المسلمين علماً من أعلام الجهاد، بمدحه الشعراء ويثنون عليه، ويشيدون بمظاهر بطولته الفذة الرائعة، فإن موقفهم لا يصلح

---

(١) راجع: العرف الطيب في شرح ديوان إلى الطيب للسياجي ، بيروت ص ٢٤١ .

(٢) انظر: كافوريات أبي الطيب د . النعمان القاضي ص ٢٢٢ ـــ ١٩٣ .

أن يوصف بغير الصدق، لأنهم عبروا تعبيراً صحيحاً، وصادقاً عن واقع حال ذلك البطل والقائد، وتضافر الصدق الواقعي مع الصدق الفني فأخرج لنا مثل هذه العاطفة الصادقة .

وعلى الضد من ذلك فقد نجد أن شاعراً ـــ مثلاً ـــ قد يضطر إلى المبالغة المسرفة حينما يكون ممدوحه، ممن لا يباشر القتال بنفسه، أو حين يكون بلاؤه في الجهاد ليس بذي حظر أو بعيداً عن الحدث والإخلاص له وفي مثل هذا المقام نلحظ كذب الشاعر في ادعاء بطولات وهمية لممدوحه، وغالباً ما يحمل النص من هذا النوع شواهد كذبه وادعائه، وقد روى أن أحد النقاد سمع شاعراً يقول أبياتاً في الغزل فقال: والله ما أحبها قط [1] ـــ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـــ .

ومن المعروف أن النقاد درسوا قضية الصدق في الأدب من جهة ما إذا كان الشاعر مطالباً بالصدق باعتبار مشاعره الخاصة، أو باعتبار الواقع الخارجي وتلك القضية هي روح الفكرة النقدية، حول معنى الصدق الفني، الذي يطالب به الشاعر، ويحاسب عليه [2] .

وقد يعمد بعض الشعراء إلى الإغراق في المبالغة، لكي يدلل على صدق عاطفته، مما يحدث أثراً عكسياً لما أراده في هذا النص، فيكون ذلك دليل زيف عاطفته، ويرجع سبب هذه المبالغة والإسراف فيها، ليغطي ويستر هذا الفتور، وذلك الزيف والكذب في تلك العاطفة المفتعلة، كما في قول أبي هانئ:

وإن الذي سمـــاك خير خليفة ∴ تجرى القضاء الحتم حيث تريد

لك البر والبحر العظيم عبابه ∴ فسيان أغمار تخاض وبيـــد [3]

وقوله أيضاً في قصيدته أنت الواحد القهار: (وهذا لا يكون إلا لله تعالى)

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ∴ فاحكم فأنت الواحد القهار [4]

ومنه قوله ـــ كذلك ـــ:

ما أجزل الله ذخري قبل رؤيتـــــه

---

(١) راجع: أسس النقد الأدبي ، د . أحمد بدوي ص ٥٠٧ .

(٢) انظر: النقد الأدبي الحديث (أصوله واتجاهاته) د . أحمد كمال زكي ص ٩٣ ، بيروت .

(٣) ديوان أبي هانئ ص ٩٨ ، دار صادر .

(٤) نفسه ص ١٤٦ .

ولا انتفعت بإيمـــــــان وتوحـــيد

لله من سبب بالله متصـــــــل

وظـــل عدل على الآفاق ممـــــــدود

هادي رشاد وبرهان وموعظـــة

وبينات وتوفيق وتســـــــديد [1]

ومثل هذه المبالغات الممقوتة والتي يأباها الطبع السليم، والإيمان الصحيح، في شعر ابن هانئ وأمثاله كثيرة جداً، وكانت سبباً في رفض الناس العقلاء لها، خاصة إذا كانت مثل هذه المبالغات تتصل بالدين والعقيدة ــ كما رأينا عند ابن هانئ في خلعه صفات الألوهية على ممدوحه بأن جعله يحكم كما يشاء، ويتصرف بما يريد فهو الواحد القهار، وهذا لا يكون إلا للملك الجبار، الواحد القاهر وهو الله تعالى .

ومن هذه المبالغات التي كانت دليلاً على زيف عاطفة صاحبها، نجد قول أبي الفرج البيغاء في مدح سيف الدولة:

فلو غدا الكرم الموصوف راحته ∴ عن أن يجاوزها لم يكرم الكرم [2]

وقوله أيضاً:

فما تدرك المداح أدنى حقوقه ∴ بإغراق منظوم الكلام ونثره [3]

ونجد من هذه المبالغات عند أبي العباس النامي أمثلة كانت سبباً في الحط من قدر صاحبها، وحقرت من شأنه، وجعلته مبتذلاً رخيصاً وذلك لإسراف النامي الشديد في التعبير عن عاطفته نحو ممدوحه، حتى إنه ليجعل من غبار خيل الممدوح عطراً له، يتعطر منه في الغدو والرواح، ويجعل من دماء قتلاه، طهوراً وخلوفاً:

لو غدا الدهـــر صافحـــاً عن الحـــظ

وأعلى من جد حـــــل عثـــــور

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ٩١ دار صادر .

(٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٦٢ .

(٣) المرجع السابق والصفحة .

لتعطرت من غبار مذاكيـــــــك

رواحي وكان عطر بـــــــــكوري

ثم صيرت من دماء أعاديـــــــك

خلوقي وكان منـــه طهـــــــوري [1]

فمثل هذه المبالغات غير مقبولة، فجاءت بنتيجة عكسية، ولذلك قالوا:

" ما زاد عن حده انقلب إلى ضده، وحق المغالاة والمبالغة في العبادة غير مقبولة، وتؤدي إلى بطلان العمل وإفساده ٠

والأصل في الشعر أن يعبر عن الصورة الحقيقية المقبولة ــ خاصة إذا كان شعراً دينياً ــ كموضوع بحثنا هذا، ولذلك كان أكثر شعر الفتوحات الإسلامية، والجهاد في سبيل الله وصد أعداء الإسلام، يمتاز بالقوة في عاطفته، ومعانيه وألفاظه، فإذا تناول شاعر موضوعاً حربياً مثيراً مرعباً، بأسلوب هين لين، لا يرقى إلى مستوى حرارة جو المعركة وشدتها، وجريان الدماء، وتناثر أشلاء القتلى وسط الضجيج والصراخ، والخراب والدمار، إذا فعل مثل ذلك يصح لنا أن نحكم على عاطفته بالزيف والكذب، وعدم تجاوبه الشعوري والعاطفي مع روح هذا الموضوع، مما دفعه إلى تصوير المعركة الحامية الوطيس بصورة بعيدة عن واقعها، كما في قول النامي ــ في قصيدته السابقة، ومنها هذه الأبيات:

وتسيرون في القنـــا فترى الآ ∴ جال مرتابة بذاك المســـير

في شموس من الحديـــد عليها ∴ أنجم يفترون فوق بـــــدور

وعجاج كأنه من دخان النـــ ∴ ـــد يلقى الهواء بالتعطـــير

عبق من علاكم فـــكأن الـــ ∴ أرض مسك والجو من كافور

فتحيوا بمدحتي فهـــي ريحـــا ∴ نة حمد تبقى بقاء الدهـــور [2]

وهنا نرى منظر المعركة الصاخب المثير، وقد أحاله الشاعر إلى مشهد جميل، مريح للنظر، تتضوع أرجاؤه بالمسك والروائح الزكية الأخرى، وهو تصوير فيه مغالطة حيث إن روح الدعة

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٦ ٠

(٢) راجع: يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٢٨٦ ، ط / دار الكتب العلمية ، ت: مفيد محمد قميحة ٠

والسكون قد سيطرت على عاطفة الشاعر، حتى وهو يتناول مثل هذا الموضوع الخطير، مما يجعلنا نجزم بكذب هذه العاطفة، وأن هذا الشعر قاله في غير وقت الحرب، بل لعله في وقت لهوٍ ودعة، فظهرت تلك الروح الوادعة في مشهد الحرب الدامية، وبدت أرض المعركة روضة غناء، يفتر أهلها عن ابتسام، وتعلو أجواءها رائحة الند الزكية، وهذا يخالف الذوق السليم القائل بأن " لكل مقام مقال . . " و" لكل حادثة حديث " .

ويمكن أن نلتمس بعض الأعذار للشاعر، فربما أراد بالدعة والسكون أن الجنود مطمئنون إلى تحقيقهم النصر على عدوهم، فتحول الجو من خلال مشاعر التفاؤل والأمل إلى جو رائع جميل، كما صوره الشاعر، ومع ذلك فالذي أراه أن تلك الصورة بعيدة عن الصدق، وهي لا تثير عاطفة القارئ، كما هو الشأن في أشعار الحرب والفتوحات الإسلامية .

ومثل ذلك نجده في قول أبي الفرج البغاء الذي تظهر منه روح التصنع والرغبة في إعطاء صورة جمالية أكثر منها حقيقية، وقد ظهر واضحاً حرص الشاعر على تزويق الأسلوب، وتكلف الصنعة فيه، يقول:

في خميس كأنما السمر والأبـ ∴ ـطال غيل حمته أسود

سلب الشمس ضوءها بشموس ∴ طالعات أفلاكهن حديد

عارض كلما جلته بروق الـ ∴ بيض حثته بالصهيل الرعود [1]

وهنا يظهر عدم وجود التجاوب النفسي بين الشاعر والموضوع الذي تناوله، فأدى هذا إلى عدم الصدق في عاطفته، وظهر النص الأدبي بهذه الصورة المتكلفة، ولعله يذكرنا بقول أرسطو: " . . والحق أن أقدر الناس تعبيراً عن الشقاء من كان الشقاء في نفسه، وأقدرهم تعبيراً عن الغضب من استطاع أن يملأ بالغضب قلبه . . . " [2] .

ومن الجدير بالذكر هنا: أن العاطفة الصادقة قد توجد وهي أقوى ما تكون لدى شعراء مغمورين، ربما لم يحفل بهم أحد، ولم يلقوا من العناية بأشعارهم ما لقيه الشعراء الكبار الذين يظلون وحدهم تحت الأضواء، لأنهم عاشوا غمار تلك المعارك .

---

(١) راجع يتيمة الدهر للثعالبي ت مفيد قميحة . ج ١ ص ٣٢٨ .

(٢) فن الشعر لأرسطو: ص ٤٨ ، ترجمة د . عبد الرحمن بدوي ط / دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٧٣ م.

إن المجاهد المسلم يدرك معنى قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ "(١) .

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، ومن ثم نجد لدى هؤلاء الشعراء المجاهدين في سبيل الله من الصدق في العاطفة، ما لا نجد عند غيرهم من الذين يتكسبون بالشعر، أو يعوزهم الإخلاص، حتى وإن تعرض أولئك الآخرين إلى معانٍ جهادية ورغبوا الناس فيها .

وشعر الصنف الأول الذي نبع من الإيمان بالله والإخلاص له، وباع صاحبه نفسه في سبيل الله، شعر متميز بأن روحه الصدق، وعبيره الإخلاص، وهو يمنح شعوراً لدى القارئ بأن يهبَّ ليصنع ما صنعه ذلك الشاعر ــ كما مرَّ بنا ــ ولسوف نجد ــ أيضاً ــ في شعر القعقاع بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ من الصدق وحرارة العاطفة ما لا نجده عند شاعر عربي كبير ــ كالبحتري مثلاً ــ، وانظر إلى قول القعقاع التالي كمثال لصدق العاطفة:

سقى الله قتــلى بالفــرات مقيمة
وأخرى بأنباج النجاف الكوائــــف
فنحن وطئنا بالكواظم هرمــــزاً
وبالثنيْ قرنيْ قــــارن بالجــــوارف
ويوم أحَطنا بالقصور تتابعــــت
على الحيرة الروحاء إحدى المصــــارف
حططناهُمُ منها وقد كاد عرشهــم
يميل بهم، فعــــل الجبــــان المخــالف
رمينا عليهم بالقبول وقــــد رأوا
غبوق المنايا حــــول تــلك المحارف

(١) سورة التوبة آية رقم (١١١) .

صبيحة قالوا: نحن قوم تنـــزلوا

إلى الريف من أرض العريب المقانف [1]

وهذا ما نجده عند أبي محجن الثقفي ـــ رضي الله عنه ـــ في موقعة القادسية، وقصته مع سعد القائد معروفة، قال:

لقد علمـــــت ثقيف غير فخـــــر

بأنا نحـــــن أكرمهـــــم ســـــيوفاً

وأكثرهـــــم دروعاً سابغـــــات

وأصبرهـــــم إذا كرهوا الوقوفـــــا

وأنّا رفدهم في كل يـــــــوم

فإن جحـــــدوا فسل بهم عريفـــــا

وليلة قادس لم يشعـــــروا بـــــي

ولم أكره بمخرجي الزحـــــــــوفا

فإن أحبس فقـــــــد عرفوا بلائي

وإن أطلق أجدعهم حتوفـــــــا [2]

فلما أطلق من سجنه، وخاض المعركة رجع إلى قيده ثانية وأنشأ هذه الأبيات السابقة، وقبلها عندما كان مقيداً في هذه الأغلال، حزيناً على ما فاته من الجهاد، قال:

كفى حزناً أن تطرد الخيل بالقنـــــــــا

وأترك مشـــــدوداً عليَّ وثاقيـــــــــا

إذا قمت عَنَّاني الحديد وأغلقـــــــــت

مصاريع دوني تصـــــم المنـــــــاديا

وقد كنـــــت ذا مال كثيـــر وأحـــوة

---

(١) راجع: تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٦٥ ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط / دار المعارف .

(٢) راجع: الأغاني ج ١٩ ص ٦ ، وما بعدها ، تحقيق عبد الكريم الغرباوي ، وإشراف: أبو الفضل إبراهيم ط / الهيئة المصرية سنة ١٩٧٢ م .

فقد تركوني واحداً لا أخـــــــــاليا

وقد شف جسمي أنني كل شـــــارق

أعـــالج كبـــلاً مصمتاً قد برانيـــــــا

فلله درى يوم أترك موثقـــــــــاً

وتذهل عني أسرتي ورجـــــــــاليا

حبيســـــاً عن الحرب العوان وقد بدت

وإعمال غيري يوم ذاك العواليـــــا [1]

وهنا يتجلى الإخلاص في النص الشعري، فإذا به يتوهج بالعاطفة النبيلة الصادقة، لأن قائله لا يتحدث عن الحرب أو يصفها عن بعد، ولكنه في قلبها ويخوض غمارها، وهو لا يدعي الشجاعة، وإنما هي صفة من صفاته، وسمة من سلوكه، وأصبحت مشاركته في القتال دليلاً على تلك الصفة الكريمة .

ويبدو صدق العاطفة في هذه القصيدة التي قالها الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك حينما كان في ثغور الروم، وكتب بها إلى الفضيل بن عياض أحد العباد المشهورين في مكة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنـــــــــا

لعلمت أنك في العبـــــادة تلعـــب

من كان يخضب جيده بدموعـــــه

فنحورنا بدمائنا تتخضـــــــــب

أو كان يتعب نفسه في باطـــــل

فخيولنـــا يوم الكريهة تتعـــــب

ريح العبـــير لكم، ونحن عبيرنـــــا

رهج الســـنابك والغبار الأطيب [2]

---

(١) راجع: الأغاني ج ١٩ ص ٥ ، ط / الهيئة المصرية سنة ١٩٧٣ م .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ج ١ ص ٢٨٦ ، وراجع ترجمته في حلية الأولياء لأبي نعيم .

والشعر في مثل هذه المواقف كثير جداً، ويغلب على الظن أنه يتميز عن غيره بأشياء ومنها على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ:

المزية الأولى: أن صدق العاطفة فيه لا يقتصر على مشاهير الشعراء ونوابغهم فحسب بل إن أكثره يوجد لدى الشعراء المغمورين الذين شاركوا مشاركة حقيقية في المعارك لأن نبل الموقف وشدة الظرف ومناسبة النص هي التي فرضت وجودها على صاحبها، فلم تأت من فراغ ٠

المزية الثانية: أن الغالب في هذا الشعر أن يكون عبارة عن مقطعات، وأبياته قليلة لا يصل فيه النص إلى القصيدة ذات النفس الطويل، لأن الوقت لا يسمح بهذا ٠

المزية الثالثة: أنه ليس هناك تلازم بين صدق العاطفة، وبين ارتقاء مستوى النص من الناحية الفنية، وشعر الفتوحات الإسلامية الذي بين أيدينا يشهد بصدق هذه النتيجة، وخذ مثلاً شعر الرجز في المعركة، ففي وسط ذلك الموقف الشديد الإثارة نرى الشاعر يرتجز بعض الأبيات التي يتجلى فيها عنصر الصدق العاطفي واضحاً جلياً، ولاشك أن ذلك الشعر يكون في الذروة، إذا قسناه بمقياس العاطفة فحسب، لكن ذلك وحده لا يكفي، بل يلزم أن يستوفي النص عناصر الشعر الأخرى ليرقى إلى مكانة رفيعة في عالم الأدب، والأعمال الفنية الجيدة ٠

والسبب في ذلك واضح، وهو أن المقام الذي قيلت فيه أبيات الرجز ليس مقام إبداع وتفنن، بل هو مقام جد وحزم، فمن الطبعي أن تنثال الكلمات على لسان قائلها دون أن يقدح زناد فكره أو يعمل عقله في التهذيب أو التنقيح والتجويد أو إظهارها بمظهر شعري جميل، فيجيء شعره ذاك واضح المعنى سهل التركيب ٠

وأخيراً: وهي نتيجة لتلك المزايا السابقة أننا نجد كثيراً من الشعر ذي العاطفة الصادقة في كتب الطبقات والتاريخ والتراجم والسير، فهي تحفل بهذا النوع من الشعر، الذي لا يلقى حفاوة في كتب الاختيارات الشعرية أو كتب الأدب الشهيرة ودواوين الفحول من الشعراء، إلا ما ندر في بعض دواوين الحماسة، لأن هذا الشعر يناسب موضوع مثل هذه الدواوين ٠

وهذه المزايا التي أشرنا إليها ـ وغيرها مما لا يتسع المجال لذكرها ـ للشعر الصادق في عاطفته، تعيننا على تفسير ظاهرة ضياع كثير من الشعر الذي قيل في الفتوحات الإسلامية، وجهاد أعداء الإسلام على مر العصور، فمستوى بعضه الفني الضعيف، وعدم شهرة قائليه، كل ذلك لم

يكن ليؤهله للذيوع والانتشار بين شداة الأدب، وعالم الشعراء الفحول، حيث إنه لم يحظ من قائليه بالتنقيح والتهذيب، وإحكام صنعة الشعر، هذا يجرنا إلى إثارة القضية النقدية القديمة الحديثة في آنٍ واحد وهي " الطبعة والصنعة " وأيهما أفضل، الشاعر المتكلف والمتصنع أم الذي يظهر على سجيته ولا يقول إلا ما يشعر به ؟ ... وهي قضية قديمة لا أريد أن أخوض فيها .

إن ظهور مثل هذا الشعر الصادق في عاطفته بهذه الصورة المشار إليها لا يدل على أن قائله لا يستطيع التنقيح أو التجويد، ولكن المقام لا يتيح له فرصة للإبداع والتفنن، وبحسب قائله أنها أبيات يسري فيها عن نفسه، ويعبر بها عن فيض عاطفته، أما التدقيق وإحكام النسج، فليس لديه الوقت الكافي لذلك، لأنه مشغول بما هو أهم، ألا وهو خوض المعركة والمشاركة الفعلية في الجهاد طلباً للشهادة، ليكون من الأحياء الخالدين، قال تعالى: " وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ " الآية .

المحور الثاني: قوة العاطفة أو ضعفها في شعر الفتوحات الإسلامية :

يقول بعض النقاد " من أهم المقاييس النقدية إن لم تكن أهمها جميعاً قوة العاطفة، ولكن هذا المقياس يذكر في الترتيب الطبعي بعد سابقه " وهو صدق العاطفة " فإذا استوثقنا من صدق العاطفة سألنا القارئ: هل أثار النص الأدبي شعورك ؟ وهل بعث فيك شعوراً حياً قوياً ؟ وهل أيقظ نفسك وأنعشها ؟ وهل أوسع نظرك ... إذا كان ذلك متوافراً كان النص أدباً قوياً ... " [1]، ومن ثم نستطيع الحكم على هذه العاطفة بأنها قوية .

وقوة العاطفة عبارة عن أمر يتجسد في داخل النص الأدبي في صور مختلفة يحس القارئ المتذوق، ويدرك تلك العاطفة الجياشة التي تسري في أوصال القصيدة، وتجعلها مختلفة تماماً عن القصيدة التي تنبع من عاطفة ضعيفة واهية، فمقياس قوة العاطفة هو ما يشعر به قارئ القصيدة من أثر في نفسه [2] .

---

(١) أصول النقد الأدبي ، د. أحمد الشايب ص ١٩٢ ، ط / مكتبة النهضة المصرية .

(٢) أسس النقد الأدبي ، د . أحمد أحمد بدوي ، ص ٢٤٢ وما بعدها .

ولا يمكن أن يكون المقصود بقوة العاطفة ثورتها وحدتها، فلربما تكون العاطفة الرزينة الهادئة أبعد أثراً في النفوس، وأقوى إيحاءاً لعمقها وأصالتها، فتكون من ذلك أبقى وأخلد، ومن الصعب أن نضع مقياساً دقيقاً لقوة العاطفة، لأن عواطف البشر مختلفة هذه واحدة والثانية الاختلاف بين نوع العاطفة وأخيراً عدم إخضاع الأمزجة الفردية لقانون علمي مباشر دقيق يشرح لنا أقوى الانفعالات، لهذا يفضل النقاد تقدير كل عاطفة وحدها حسب طبيعتها ومقدار تأثيرها[1].

ولكن ما مظاهر قوة العاطفة ؟

تتجلى قوة العاطفة في شعر الفتوحات الإسلامية وجهاد أعداء الإسلام من خلال عدة أمور، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

أولاً: البداية القوية للنص الشعري، فهي مظهر من المظاهر التي تتضح من خلالها قوة العاطفة، ومدى تأثر القارئ بهذا النص، فالشاعر مثلاً حينما يترك المقدمة التقليدية يحس أن الأمر أهم من أن يضبط عواطفه، أو يؤجل التعبير عنها، ربما يذكر للسامع نسيباً أو غزلاً يثيره، ويشده إليه، وهذا ما علل به ابن قتيبة وجود النسيب في بداية القصيدة العربية، وذلك " ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه [2] .

وإذا كان هذا نهج الشاعر في القديم عندما يريد أن ينظم قصيدة في الظروف العادية والأمور المعتادة، فإنه في أوقات معينة، ومواقف متميزة، وخاصة في الأوقات الحرجة والمواقف الصعبة، يشعر أن الأمر مهم جداً، وأن الإفضاء بما يريد التعبير عنه، لا يحتمل التأخير، كما لا يرى حاجة ملحة إلى تنبيه الأسماع لأنها مصغية إليه، منتظرة ما يقول، وسرعان ما يتخلى الشاعر عن منهجه القديم المعتاد في الأمور العادية، ويدخل في غرضه الشعري مباشرة .

ومن المطالع المهمة والمؤثرة ما نجده في بائية أبي تمام التي نظمها في فتح عمورية، ومناسبتها معروفة، وهذه البداية القوية تؤكد أن الموضوع الذي يطرحه الشاعر خطير جلل، وبالفعل فقد كان اعتداء الروم على أحد ثغور الإسلام سبباً من أسباب خروج الخليفة لقتالهم، وهزيمتهم هزيمة نكراء في معركة حامية الوطيس، وهذه القصيدة تعد من أروع ما قيل في شعر الفتوحات الإسلامية ضد

---

(١) أصول النقد ، مرجع سابق ، ص ١٩٥ .

(٢) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ج ١ ص ٥٧ .

أعداء الإسلام، وقد بدأها أبو تمام بتلك الآلة التي يتحقق بها النصر وبالفعل بدلاً من القول، فقال[1]:

السيف أصدق أنباء من الكتـــب ∴ في حده الحد بين الجـد واللعـب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ∴ متونهن جلاء الشـــك والريب
والعـلم في شهـب الأرماح لامعة ∴ بين الخميسين لا في السبعة الشهب

ومنها كذلك:

فتح الفتوح تعالى أن يحيـط به ∴ نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السمـــاء به ∴ وتبرز الأرض في أثوابها القشـب
يا يوم وقعة عمـورية انصرفت ∴ عنك المنى حفلاً معسـولة الحلب
أبقيت جد بني الإسلام في صعد ∴ والمشركين ودار الشرك في صبب

وتمضي أبيات هذه القصيدة على نحو قوي مثير، كأنما هي بحر متلاطم الأمواج، وحينئذ يدرك القارئ أن هذه البداية وذلك المطلع القوي يثير في الإحساس بأن وراءه عاطفة قوية صاخبة، فالشاعر يؤكد أن القوة وحدها تحسم الموقف، وتنهي الصراع، وترد ما ضاع من حقوق المسلمين، والسيف هو الذي يفصل في الخصومة، ويقضي بالظفر والنصر لصاحبه، وهذا موقف حسمه القرآن الكريم، قال تعالى: " قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ .... "[2] .

وهذا الموقف الصعب، جعل أبا تمام يترك ما ألفه الشعراء، وما ساروا عليه في نظم القصيدة عندما بدأوا بالمقدمات الغزلية، وبدأ بالتعبير عما يريد مباشرة، وكان مشاعره لا تطيق صبراً، فلابد أن تنطلق من إسارها، غير عابئة بتقاليد الشعراء السابقين، أو مناهج لا يحتملها هذا المقام، وذلك الموقف .

(١) راجع ديوان أبي تمام ص ١٨ ، طبعه وشرحه ، شاهين عطية ، ط دار الكتب العلمية .

(٢) سورة التوبة من الآية رقم (١٤) .

وقد تنبه ابن رشيق إلى هذا الملمح النقدي، فأثنى على الشاعر لبدايته القوية المميزة في هذه القصيدة، فقال: " وكان أبو تمام فخم الابتداء، له روعة، وعليه أبهة .. " [1]، ثم استشهد بمطلع هذه القصيدة .

ومن البدايات القوية لهذا الشعر، ما نجده عند المتنبي، هذا الصوت القوي الذي لا يغيب عن سمع المصغي لشعر الفتوحات الإسلامية وصراع أعداء الإسلام، فقد تميز بعاطفة قوية، باتت سمة من سمات شعره، بل من أهمها، وحسبنا في هذا المقام أن نتذكر اشتراطه على سيف الدولة ألا يطلب منه أن يقول شعراً، بل يدعه هو بنفسه يبدع الشعر متى ما أحس الشاعر بذلك [2] .

وهو بذلك لا يخضع لضغوط من قبل الخليفة، ولا يضع شاعريته تحت الرهبة أو الرغبة، أو يخضع عبقريته الشعرية لضغوط التكلف والتصنع التي تجعل شعره بارداً غثاً، وهذا أمر يأنف منه ويأباه شاعر كبير مثل المتنبي، فأبو الطيب يبدأ كثيراً من قصائده الحربية بداية قوية، تحاكي قوة عاطفته التي تتوهج فخراً وإعجاباً بالقائد المسلم وجيشه الإسلامي، وكيف اجتمع لهم من أسباب النصر ما ضمن له الظفر والقضاء على الأعداء وسحقهم، حتى لا تقوم لهم شوكة بعدها .

يقول في مثل هذه المواقف لسيف الدولة: [3]

الرأي قبل شجاعة الشجعان ∴ هـــو أول وهي المحل الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفـــس مرَّة ∴ بلغت من العلياء كل مكان

ويعد الثعالبي هذا المطلع من أروع مطالع أبي الطيب وأحسنها [4] .

وأرى أنه قول مصيب وجيد، لما في هذا المطلع من القوة والروعة، ولأنه يناسب موضوع القصيدة الحربي، بل نجده يوضح ما نحن بصدده من ترك البدء بالغزل، ويبدأ بغرضه مباشرة ثم يذكر ممدوحه البطل معللاً ذلك بأنه الأولى، لمن كان مثل سيف الدولة.

---

(١) العمدة لابن رشيق ١ / ٢٣٣ .

(٢) راجع: الصبح المنبئ عن حيثية المتنبي للبديعي ص ٧١ ، ت: مصطفى السقا .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ج ٤ ص ١٧٤ .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ١٩٠ .

إذا كان مدح فالنسيب المقـــدم ∴ أكل فصيح قال شعـــراً متيم ؟
لحب ابن عبدالله أولى فإنـــــه ∴ به يُبدأ الذكرُ الجميل ويُختـــم
أطعت الغواني قبل مطمح ناظري ∴ إلى منظر يصغرن عنه ويعظم [1]

وكما نجد كذلك هذه البداية القوية، في مديح السرى الرفاء لسيف الدولة حينما انتصر على الروم، وبنى قلعة الحدث، وجعلها أحسن مما كانت، فقال:

فتح أعز به الإســـــلام صاحبه ∴ ورد ثاقب نـــــور المـــلك ثاقبه
سارت به البرد منشوراً صحائفه ∴ على المنـــابر محمـــــوداً عواقبه
فكل ثغر، له ثغـــــر يضاحكه ∴ وكل أرض بها ركب تصاحبه [2]

وكذلك صنع أبو فراس في إحدى قصائده الحماسية القوية، مثل هؤلاء الشعراء حيث جعل مطلع القصيدة قوياً، وبدايتها مؤثرة، فقال مؤكداً على أهمية عنصر القوة :

لا عز إلا بالحسام المخدم ∴ وضراب كل مدجج مستلئم
وقراع كل كتيبة بكتيبة ∴ ولقاء كل عرمرم بعرمرم [3]

وحين ناظر الدمستق أبا فراس الحمداني، فكان مما قاله الدمستق: إنما أنتم كتاب ولا تعرفون الحرب، فقال له أبو فراس: نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف لا بالأقلام ومع كونه أسيراً لدى الأعداء إلا أنه كان قوياً، ولم يمنعه هذا الأسر من أن يغضب لدينه فيخاطب قائدهم بكل قوة قائلاً له:

أتزعم يا ضخـــم اللغـــاديد أننـــا ∴ ونحن أسود الحـــرب لا نعرف الحربا
فويلك من للحرب، إن لم نكن لها ؟ ∴ ومن ذا الذي يمسي ويضحى لها تربا ؟
ومن ذا يكف الجيـــش عن جنباته ؟ ∴ ومن ذا يقود العين أو يصدم القلبا؟ [4]

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي ج ٣ ص ٣٥٠ .
(٢) ديوان السرى الرفاء (الحسنى) ج ١ ص ٣٧٤ وما بعدها .
(٣) ديوان أبي فراس الحمداني ج ١ ص ٣٦ .
(٤) ديوان أبي فراس الحمداني ج ١ ص ٣٦ .

فمثل هذه المطالع القوية والمؤثرة، والدخول المباشر إلى الموضوع، يعدان ـــ في رأيي ـــ مظهراً من مظاهر قوة العاطفة في القصيدة .

ثانياً: ومن مظاهر قوة العاطفة في النص الشعري ـــ وخاصة في شعر الفتوحات الإسلامية، وجهاد أعداء الإسلام: قوة الأسلوب وجودته، فالأسلوب يعد من أبرز المجالات التي تبدو من خلاله قوة العاطفة، وهو مظهر من مظاهر وجود عاطفة قوية في النص، وهذه سمة بارزة من سمات شعر الفتوحات الإسلامية ـــ كما سبق ـــ من ذلك ما يجيء في الأسلوب التهكمي الساخر الذي تدفع إليه، عاطفة التشفي من الأعداء بعد أن تحيق بهم الهزيمة، فيجد المسلم في نفسه، نشوة الظفر والنصر، التي تجعله يفرح، أشد الفرح حينما يرى هزيمة الكفار: " وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ *بِنَصْرِ اللَّهِ " [1]. وهذا الفرح بتدمير الأعداء يدخل في باب ما أسماه الجرجاني: " الحسن لمعنى في غيره "، وهو: " الاتصاف بالحسن لمعنى ثبت في غيره كالجهاد، فإنه ليس بحسن لذاته لأنه تخريب بلاد الله ... وإنما حسن لما فيه من إعلاء كلمة الله، وهلاك أعدائه، وهذا باعتبار كفر الكافر .. " [2]، وكذلك إقامة الحدود، والقصاص، فهي لا تحسن لذاتها، وإنما لما يترتب عليها "وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" [3].

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله أبو تمام في وصف دمار (عمورية):

ما ربع مية معمـــــوراً يطيف به ∴ غيلان أبهى ربي من ربعهـــا الحرب
ولا الخدور، وقد أدمين من خجل ∴ أشهى إلى ناظر من خدرهـــا الترب
سماجة غنيت منـــا العيـــــون بها ∴ عن كل حسن بدا، أو منظر عجب
وحسن منقـــــلب تبدو عواقبه ∴ جاءت بشاشته من سوء منقلب [4]

---

(١) سورة الروم آية رقم (٤) بعض آية (٥) .

(٢) التعريفات للجرجاني: ص ١٢٠ تحقيق د . عبد الرحمن عميرة .

(٣) سورة البقرة آية رقم (١٧٩) .

(٤) ديوان أبي تمام ج ٢ ص ٦٢ .

أو قوله:

رموا بابن حرب سلَّ فيهم سيوفه ∴ فكانت لنا عرساً وللشرك مأتما [1]

وكذلك قول أبي فراس الحمداني مخاطباً ابن عمه سيف الدولة:

وملكت حصن (عيون جيحان) وقد ∴ أعيا الورى في دهره المتقـــدم

وأخذته فرأيت أحسن منظـــــر ∴ من سوره المتهتك المتهـــدم [2]

أو قول المتنبي في قصيدة " بطولة عربية " عن الأعداء وهم يقتلون، وتتناثر أشلاؤهم:

نثر تهمو فوق الأحيدب نثرة ∴ كما نثرت فوق العروس الدراهم [3]

وقريباً من ذلك تصوير ابن هانئ حزن الروم، وصياح نسائهم الثكلى، بأنه بمثابة الطرب والغناء والفرح الغامر في نفوس المسلمين، إنه يجد طرباً في ذلك الأنين الذي يوضح عمق الهزيمة، وتألم الأعداء منها، يقول:

لو كان للروم علم بالذي لقيـــت ∴ ما هنئـــت أم يطريـــق بمولـــود

لم يبق في أرض [قسطنطين] مشركة ∴ إلا وقد خصَّهـــا ثكل بمفقـــود

أرض أقمت رنيناً في مآتمهـــــا ∴ يغني الحمائم عن سجع وتغريد [4]

ومن آيات تأثر الأسلوب بقوة العاطفة، أننا نجد في شعر الأسر عاطفة قوية، تبدو في صورة أنات حرَّى، وزفرات تصَّعد، ونجد في مثل ذلك نغماً حزيناً دافئاً، ينفعل به القارئ، ويتأثر به تأثراً عظيماً، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها:

---

(١) نفسه ج ٣ ص ٢٤٣ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني ج ٦ ص ٣٧٩ ، وعيون جيحان: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي ، ومخرجه من بلاد الروم ، ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفر بيا بإزاء المصيصة ، راجع معجم البلدان: ٢ / ١٩٦ .

(٣) ديوان أبي الطيب ج ٤ ص ٩٠ وما بعدها .

(٤) ديوان ابن هانئ ص ٩٣ .

بعد أن علم الروم بإسلام فروة بن عمر الجذامي [1] ـــ رضي الله عنه ـــ حبسوه عندهم، فقال في محبسه: القصيدة التي سوف نذكر منها بعض الأبيات، والتي يعبر فيها عن مشاعر المسلم حين يكون سجيناً لدى الأعداء، ويصور ما يلقاه من الألم حتى إن خيال محبوبته ليصد عنه لأنه لا يطيق رؤيته في ذلك الموقف العصيب:

طرقت سليمي موهناً أصحـــــــابي
والـــــروم بين الباب والقـــــــروان [2]
صدَّ الخيـــــال وساءه ما قد رأى
وهممت أن أغفي وقد أبـــــــــكاني
لا نكحلن العين بعدي إثمـــــــــداً
سلمى، ولا تدنين للإتيـــــــــــان
ولقد علمت أبا كبيشـــــة أنـــــني
وسط الأعـــــزة لا يحص [3] لســـاني
فلئن هلكت لتفقدن أخـــــــــاكم
ولئن بقيـــــــت لتعرفن مـــــكاني
ولقد جمعـــت أجل ما جمع الفـــــتى
من جودة وشجـــــــــاعة وبيـــان

---

(١) فروة بن عمرو الجذامي: وهو فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي ، كان عاملاً للروم على قومه بني النافرة (بين خليج العقبة وينبع) أسلم بعد موقعة تبوك ، وأهدى إلى رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بغلة بيضاء ، وحينما بلغ إسلامه الروم ، أمروا به واعتقل ، ثم قتل وصلب بفلسطين سنة ١٢ هـــ ، راجع الإصابة ج ٥ ص ٣٨٧ وما بعدها ترجمة رقم (٧٠٢٤) البداية والنهاية ٥ / ٨٦ ، والروض الأنف ج ٧ ص ٤١٧ .

(٢) مفردات: الباب: يعرف بباب غرابة وهو بلد صغير في طريق وادي بطنان بحلب .

(٣) يحص لساني ـــ أي لا يضطرب .

ومن قوة العاطفة في النص الشعري ما نراه عند مسلم بن الوليد عندما مدح القائد " يزيد بن مزيد الشيباني " حيث أمدت هذه العاطفة القوية الأسلوب بفيض زاخر من قوتها وروعتها، يقول مسلم:

سد الثغور (يزيد) بعدما انفرجـــت
بقائم الســـيف لا بالختل والحيـــل
كم قد أذاق حمـــام الموت من بطـــل
حامي الحقيقـــة، لا يؤتى من الوهـــل
يغشى الوغى، وشهاب الموت في يـــده
يرمي الفوارس والأبطـــال بالشعـــل
يفتر عند افترار الحرب مبتسمـــاً
إذا تغير وجه الفـــارس البطـــل [1]

ففي هذا النص، بين الشاعر كيف حمى الممدوح الثغور الإسلامية، وكأن في السور الذي يحمي المسلمين ويمنع عنهم الأعداء، ويتحصنون به من أعدائهم، فيه ثغرة عظيمة يستطيع العدو النفاذ منها، فسدَّ ذلك القائد القوي الشجاع تلك الثغرة بقوة واقتدار، ثم مضى الشاعر يعطي أهمية كبيرة للممدوح في ساحة الوغى، وكيف يجندل الأبطال، ويصرعهم، مدعياً أن الذي بيده إنما هو شهاب الموت، لا سيفاً من السيوف التي تكون مع الفرسان الآخرين، ومع كل هذا البلاء العظيم الذي يبليه في ميدان الحرب، إلا أنه يخوض لجحها غير هياب، ولا وجل، فلا تلمح عليه أثر المعاناة أو الألم، بل يظل مبتسماً، محتفظاً بإشراق وجهه، وطيب ابتسامته .

وكذلك يصور أبو تمام أثر معركة عمورية على الأعداء، فيصفها بأنها كانت قاصمة الظهر للروم، وهو تعبير قوي، يؤكد وطأة تلك الموقعة وشدتها، والهزيمة التي ألحقها المسلمون بأعدائهم، يقول أبو تمام:

أتتهم الكربة الســـــوداء ســـادرة
منها وكان اسمها فراجة الكـــــــرب

---

(١) شرح ديوان صريع الغواني في تحقيق د . سامي الدهان ، ص ٩ .

جرى لها الفأل نحســـاً يوم أنقـــرة

إذ غودرت وحشة الساحـــات والرحب

لما رأت أختهـــا بالأمس قد خربت

كان الخراب لهـا أعدى من الجـرب [1]

وفي البيتين التاليين، يتضح كيف بدت قوة التعبير انعكاساً لقوة العاطفة في التص، وبخاصة حينما يختار الشاعر التعبير بلفظ (جبار السموات) وهو لفظ مشعر بالقوة والجلال والعظمة، يقول المتنبي:

لقد سل ســـيف الدولة المجدُ معلمـاً

فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالبـــــه

على عائق المـــلك الأغر نجـــاده

وفي يد جبـــار السموات قائمه [2]

ولعل المتنبي في هذا كان موفقاً، حينما عبر بـ (زار) عن ذهاب سيف الدولة إلى بلاد الروم لقتالهم، وكأنه لا يعبأ بهم، ولا يقيم لهم وزناً، حتى إنه في محاربته إياهم، وتوغله في أرضهم، كأنما في رحلة سياحية، وزائر لهذه البلاد والثغور، يقول:

إذا زار سيف الدولة الروم غازياً ∴ كفاها لمُامُ، لو كفاه لمـام [3]

ويكشف الشاعر عن أن الزيارة لم تكن لمحبة تلك البلاد، أو لمودة أهلها وحبه لهم، لكنها للغزو والتنكيل بهم، ومظهر لضعف أهلها وذلتهم، حيث لا يطلبون منهم الإذن أو الموافقة على دخول بلادهم، بل يدخلها المسلمون متى أذن لهم بذلك سيف الدولة، أما أهلها فلا يؤبه بهم، ولا يقام لهم وزناً، ولا يؤخذ منهم الإذن:

نزور دياراً ما نحب لها مغـــــنى ∴ ونسأل فيها غير سكانها الإذنا [4]

---

(١) راجع: ديوان أبي تمام ص ١٩ .

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ج ٣ ص ٣٤١ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤١ .

(٤) السابق ج ٤ ص ١٦٤ .

ويستخدم البحتري الفعل نفسه، ليبين قوة المسلمين التي يتضاءل أمامها العدو مهما بلغت قوته وعظمته، يقول:

نزور بلا شوق (تذروة) وابنها　　وقد صدّ عنها توفل بن مخابلا [1]

إن قوة العواطف في شعر الفتوحات الإسلامية ومقاتلة أعداء الإسلام، ليس من الصعب ملاحظتها فهي تتبدى جلية واضحة، وتلبس من أكيسة الألفاظ والعبارات ما يوائم طبيعتها القوية، وتختار من الأساليب ما لا تخطئ العين إذا نظرت إليه بإمعان، وتدرك أن وراء هذه الألفاظ والأساليب عاطفة قوية، زاخرة بالعنفوان والتأثر .

ومن خلال النظر في هذه الألفاظ التي استخدمها شعراء هذا الاتجاه، نجد كثيراً منها كأنما غمست في دماء القتلى، فكان لها هزة الدم المنساب من أعداء الإسلام، وإثارة الغيرة والحمية الإسلامية، وبات كثير من هذه العبارات والكلمات مضرجة بالدماء، مغبرة بالنقع، ونحس أنها جزء لا يتجزأ من تلك المعارك .

ثالثاً: على أن أجل مظاهر العاطفة القوية في النص هو تأثر السامع به، وتجاوبه النفسي معه، وربما ظهر تأثير القصيدة في المستمع أعمق وأبلغ، وذلك حينما يبادر إلى اتخاذ موقف معين نتيجة تأثره بذلك النص الأدبي، فإذا كانت عاطفة الشاعر قوية، وجدنا أن نصه ـــ في الغالب ـــ لا يذهب هباء بل يؤثر غاية التأثير في المستمع، " فمصدر القوة الأول الأديب نفسه، فيجب أن يكون قوي الشعور، عميق العاطفة، ليستطيع بث ذلك في نصه، ثم في نفوس قرائه، وإلا فلن ينتظر منا تأثيراً ولا مطاوعة لما يزغم ويصطنع، وهذا هو سر القوة، ومنبع العظمة الأدبية .. " [2] .

ويقول بعض الباحثين " وتقاس قوة العاطفة بإثارتها لعاطفة القارئ، والسبب في إهاجة العواطف ليست وسيلة في الأدب، بل هي غاية يهدف إليها الأديب، وتعتبر أهم الأغراض له " [3]، ويقول آخر مبيناً أن غاية الشعر التأثير في سامعه: " إن العرب كانت تقول الشعر لوجهين:

---

(١) ديوان البحتري ج ٣ ص ١٦٠ ، وتذروة: هي زوجة توفيل الذي هزمه المعتصم في عمورية واسمها: ثيودورة ، عند الرومان ، تولت وصاية العرش بعد وفاة زوجها .

(٢) راجع أصول النقد الأدبي ، د . أحمد الشايب ص ١٩٥ .

(٣) الكامل في النقد الأدبي للأستاذ / كمال أبو مصلح ص ٧٢ .

أحدهما: ليؤثر في النفس أمراً من الأمور تعدو به نحو فعل أو انفعال، والآخر: للعجب فقط، فكانت تشبه كل شيء لتعجب بحسن التشبيه"[1]، وفي هذا الكلام نظر، وهذا غير معقول لأن للشعر وظيفة أسمى من ذلك.

ومن شواهد قوة تأثير الشعر، ذي العاطفة القوية ما نراه حينما توافدت الشعراء على الخليفة (هارون الرشيد) يهنئونه بالعيد، وبالنصر على أعداء الإسلام، حتى إذا ما أنشده أشجع السلمي، أقبل عليه وأمر أن تجزل له المكافأة وزاد على ذلك بأن منع أن ينشد يومه ذاك، وكأنه وجد من المتعة والسرور بقصيدة هذا الشاعر، ما يخشى أن يفقده إذا استمع لشعر غيره، وقد حفظ لنا التاريخ الأدبي من تلك القصيدة الأبيات التالية:

لا زلت تنشـــــر أعياداً وتطويهـــــا
تمضي لها بك أيـــــام وتمضيهـــــــا
ولا تقضت بك الدنيا ولا برحـــــت
يطوي بك الدهر أياماً وتطويهـــــــا
ليهنك الفتح، والأيـــــام مقبـــــلة
إليك بالنصـــــر معقوداً نواصيهـــــا
أمست (هرقلة) تهوى من جوانبها
وناصر الله والإســـــلام يرميهـــــا
ملكتها وقتلت الناكثـــــين بهـــا
بنصر من يملك الدنيا وما فيهـــــــا
ما روعي الدين والدنيا على قـــدم
بمثل هارون راعيه وراعيهـــــــــا

ويقال إن الخليفة عندما استمع إليه، أمر له بعشرة آلاف دينار، وقال لا ينشدني أحد بعده شيء ــ كما مر ــ فقال أشجع: والله لأمره ألا ينشده أحد من بعدي أحب إليّ من صلته . . . " [2] .

---

(١) فن الشعر لأرسطو ، ص ١٧٠ .

(٢) راجع: معجم البلدان ، البلاذري ج ٥ ص ٣٩٨ .

وحينما نقض (نقفور) العهد الذي أبرمه مع الرشيد، وكان الخليفة مازال في طريق العودة إلى بغداد، هاب قادة الجيش، وكبار الدولة أن يخبروا الرشيد بما حدث، فانبرى لذلك شاعر مغمور، هو عبد الله بن يوسف التيمي [1]، واحتال لذلك بألفظ الحيل، واستطاع من خلال شعره أن يقول كل ما يريد، وما عجزت عنه القواد وكبار رجال الدولة، بكل لباقة تليق بمخاطبة الخلفاء والملوك، وصوَّر الأمر على أنه يزف ذلك الخبر إلى الخليفة لكي يستأصل شأفة ذلك الآبق، ويريه عزة الإسلام وأهله، فقال:

نقض الذي أعطيته (نقفـــور)
وعليه دائـــرة البوار تـــدور
أبشر أمير المؤمنـــين فإنـــه
غنم أتـــاك به الإله كبـــير
فلقد تباشرت الرعيـــة أن أتى
بالنقض عنه وافـــد وبشـــير
وَرَجَتْ يمينك أن تعجل غـــزوة
تشفي النفوس مكانهـــا مذكـــور
أعطاك جزيتـــه وطأطأ خـــده
حذر الصـــوارم والردى محـــذور
فأجرته من وقعهـــا وكأنهـــا
بأكفنا شعل الضـــرام تطـــير
وصرفت بالطول العســـاكر قافلاً

(١) هو الشاعر أبو محمد التيمي ، عبد الله بن يوسف: شاعر مغمور ، من قبيلة تيم القرشية ، ولد في مكة فنسب إليها ، ثم ارتحل إلى جدة ، كان مع الرشيد في غزو هرقلة ، انظر في ذلك: تاريخ الطبري ج ٨ ص ٣٠٨ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربي ــ العصر العباسي الأول ــ د ٠ شوقي ضيف ص ٣٤٨ وما بعدها ، وفيه أن الشاعر من أهل الكوفة وأن اسمه أبو محمد: عبد الله بن أيوب التيمي ، ووفاته سنة ٢٠٩ هـ ٠

عنه، وجارك آمن مســـــــــــرور

(نقفور) إنك حين تغدر إن نـــأى

عنك الإمـــــــام لجاهـــل معـــــرور

أظننت حين غدرت أنك مفـــــلت

هبلتك أمـــــك ما ظننت غـــــــرور

ألقاك حَيْنكَ في زواجر بحـــــره

فطمت عليك من الإمـــام بحـــــــور

إن الإمام على اقتسارك قـــــادر

قربـــــت ديارك، أم نأت بـــــك دور

ليس الإمام وإن غفلنا غـــــافلاً

عما يسوس بحزمـــــه ويديـــــــــر

ملك تجرد للجهـــــــاد بنفسه

فعـــــدوه أبداً بـــــه مقهـــــــور

يا من يريد رضا الإلـــه بســـعيه

والله لا يخفى عليه ضمـــــــــــير

لا نصح ينفع من يغش إمـــــــــامه

والنصح من نصحائه مشـــــــــكور

نصح الإمام على الأنام فريضـــــــة

ولأهلهـــــا كفارة وطهـــــور [1]

وقد تأثر الرشيد بعد سماعه تلك القصيدة، وعاد من فوره يطلب (نقفور) وأخضعه مرة ثانية للجزية، وكان الناس مشفقين من العودة بسبب تمرد هذا اللعين وكذلك البرد الشديد الذي لم

---

(١) راجع: تاريخ الطبري ج ٨ ص ٣٠٨ وما بعدها ، ومجالس ثعلب تحقيق عبد السلام هارون ص ٤٤٧ ، وفيه فتقدم التيمي فأنشده أرجوزة يذكر فيها (نقفور) ووقعه الرشيد بالروم ، فنثر عليه الدر من جودة شعره .

تتعود عليه أبدانهم، لكنه الجهاد في سبيل الله، وقتال أعداء الإسلام مهما كان ثمنه فالجزاء أكبر .

ويدرك المتنبي مدى تأثير شعره، في الممدوح، فيطلب ألا يصل إلى مسامعه هذا الشعر الذي وصف فيه الحرب وأهوالها، لأن ذلك داعٍ إلى أن يلبس الخليفة عدة الحرب ويشرع السلاح، ويبادر إلى ساحة الوغى .

فلا تبلغاه ما أقـــول فإنـــــه ∴ شجاع متى ما يذكر له الطعن يشتق [1]

وما هو ذا البحتري يصل إليه خبر سجن بطل الثغور أبي سعيد يوسف بن محمد الثغري، وأنه بات تحت رحمة رجل كافر، يصب عليه جام غضبه وحقده، ويشفي منه غليل قومه النصارى، يطلقها الشاعر صرخة مدوية، تقرع الأسماع، وتوقظ الضمائر الحية لكي تسارع إلى إنقاذ فارس الثغور الإسلامية، وبطل الجهاد:

يا ضيعة الدنيـــا، وضيعة أهلهـــا
والمســـلمين وضيعة الإســـــلام
طلبت ذحُول الشرك في أرض الهدى
بين المـــداد وألسن الأقـــــلام
هذا ابن يوسف في يدي أعـــدائه
يجزي على الأيـــــام بالأيـــــام
نامت بنو العباس عنه ولم تـــكن
عنه أمية لو رعت بنيـــــــام [2]

إنها صرخة مجلجلة، بلغت سمع الخليفة في قصره، فأمر بإخراج أبي سعيد من سجنه، واستدعى قاتلها، فكانت بداية اتصال البحتري بالخليفة، ومناسبة هذه الأبيات أن أبا سعيد الثغري، قد طولب بمال بعد غزواته المشهورة، وسُلّم إلى أبي الخير النصراني ليستخرج منه المال، فجعل النصراني يعذبه، فشق ذلك على المسلمين، وقالوا: يأخذ بثأر النصرانية من أبي سعيد في ديار

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢ / ٣١٠ .

(٢) راجع: ديوان البحتري ج ٣ ص ٢٠٣١ وما بعدها وذحول: جمع ذحل وهو الثأر والعداوة .

الإسلام ؟ ! فقال البحتري الأبيات المذكورة، وكما [1] ذكرنا ـــ تأثر بها الخليفة، وأمر بإطلاق سعيد من السجن، وحينما نزل الروم (دمياط) يوم عرفة سنة ٢٣٨ هـ، وقتلوا الكثير من المسلمين، وسبوا النساء وقتلوا الأطفال، وخرج لهم أمير مصر في ذلك الوقت وهو " عنبسة بن إسحاق فلم يدركهم، ومضى الروم إلى (تنيس) فأقاموا بأشتومها، فأفزع ذلك الناس، وانبرى يحيى بن الفضل ليبلغ الخليفة بهذا الحدث، مخاطباً المتوكل [2] :

أترضى بأن توطأ حريمـــك عنـــوة

وأن يستباح المســـلمون ويحـــربوا ؟

حمار أتى دمياط والروم وثـــب

بتنيس منه رأي عين وأقـــرب

مقيمون بالأشتوم يبغون مثـــل مـــا

أصابوه من دمياط والحرب ترتـــب

فلا تنسنا إنا بدار مضيعـــة

بمصر، وإن الدين قد كاد يذهـــب

وقد تأثر الخليفة المتوكل بهذه الأبيات، وهب لنصرة الدين، وسارع بالأمر إلى واليه على مصر بتحصين دمياط .

وإذا كانت المناسبة تلقي ضوءاً على النص، وتكشف تأثر القائد به، فإن ذلك لا يكفي لبيان قوة العاطفة، بل لابد أن نشعر نحن بتأثرنا وتجاوبنا مع عاطفة الشاعر التي تجد في أنفسنا استجابة لها، على الرغم مما بيننا وبين صاحب النص من مسافة شاسعة في الزمان والمكان .

ويقرر بعض الباحثين أن من الممكن صياغة آراء عبد القاهر الجرجاني في حقيقة واحدة، عليها مدار الإبداع الأدبي وهي أن مقياس الجودة الأدبية هو تأثير الصور البيانية في نفس متذوقها[3] .

---

(١) راجع: ديوان البحتري ج ٢ ص ٢٠٣١ .

(٢) راجع: البداية والنهاية ج ٥ ص ٨٦٧ ، ط / دار الغد .

(٣) انظر: من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده د . محمد خلف أحمد ص ١٢٤ .

فالنص الشعري إذا كان عديم التأثير في المتلقي، أو على الأقل ضعيفه، فهو لا يصدر إلا عن عاطفة ضعيفة، لا تتفاعل تفاعلاً إيجابياً مع الحدث الذي يملي على الشاعر صياغة انفعالاته في شكل قصيدة شعرية مؤثرة، فقوة العاطفة تتحقق في ذلك التجاوب الذي ينشئه الشاعر بين شعره، وبين المستمع له، يقول قدامة بن جعفر: " إن المحسن من الشعراء فيه (أي في شعر النسيب) هو الذي يصف من أحوال ما يجده، ما يعلم به كل ذي وجد حاضر، ... أو قد وجد مثله، حتى يكون للشاعر فضيلة الشعر ... " (١) .

وهذا يجعلنا نكلم عن نقطة غاية في الأهمية، وهي: العلاقة بين قوة الموضوع وقوة العاطفة، وهل بالضرورة لا توجد العاطفة القوية إلا في الموضوع القوي ؟

والحقيقة التي أراها: أن النصوص الشعرية بعامة، ونصوص شعر الفتوحات الإسلامية وجهاد أعداء الإسلام بخاصة، تكشف عن العلاقة القائمة بين العاطفة من جهة، والموضوع الذي يتناوله الأديب من جهة أخرى، ومن ثم تؤثر قوة الموضوع في العاطفة على نحو لا سبيل إلى إنكاره، ولذلك كان شعر الرثاء مثلاً وشعر الفتوحات الإسلامية أصدق عاطفة وأقوى عن سائر الأغراض الأخرى .

وهناك من الموضوعات ما يكون لها بعد نفس يهز الوجدان بعنف، ويؤثر تأثيراً كبيراً في نفسية الشاعر المرهفة الإحساس، وحينما يطرق واحداً منها فإنه يتبين لنا كيف بات متأثراً غاية التأثر بما حدث .

وفي شعر الفتوحات الإسلامية وجهاد أعداء الإسلام نرى كثيراً من الموضوعات التي لها بعد نفس يلمس شغاف القلوب، ويحرك الوجدان، ويثير الانفعالات وخاصة ما يصور تلبية استغاثة الجند المسلمين، وما يختص بذكر حال السبايا المسلمات، اللاتي ساقهن الكفار حاسرات، حافيات الأقدام، لا حول لهن ولا قوة، ولذا لا عجب أن نرى أبا تمام يمتدح الخليفة المعتصم، ويثني على غيرته، حينما أجاب نداء تلك المرأة المسلمة، والتي طلبت منه الغوث والنجدة، فسار على رأس جيش كبير، وأوقع بالروم شرّ هزيمة، وانتصر لتلك المرأة ولغيرها من أهالي الثغور:

---

(١) راجع: نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق ، كمال مصطفى ص ١٢٦ .

لبيت صوتـــاً زبطرياً هرقت له ∴ كأس الكرى، ورضاب الخرد العرب [1]

وأبو الطيب المتنبي يحكي حال أهل الثغور من المسلمين حينما داهمهم العدو، فراحوا يطلبون النجدة والعون من (سيف الدولة) الذي هرع إليهم، واستنقذهم في اللحظات الحاسمة، وقد كان الأعداء يقتلونهم، ويبالغ الشاعر في إظهار كيف أن الممدوح قد هب لنجدتهم في وقت حرج، وذلك بتصويره لجند الروم وقد شهروا سيوفهم وأهووا بها على أعناق المسلمين، لكن (سيف الدولة) جاء قبل أن تنال هذه السيوف أربها منهم، وهنا يؤكد أبو الطيب على أنه إذا كان ثمة غوث، فليكن على النحو الذي أظهره الأمير الحمداني حيث أدرك المسلمين قبل فوات الأوان، يقول الشاعر:

أبا ســـيف ربك لا خَلقْه ∴ ويا ذا المكارم لا ذا الشطب
وأبعـــــد ذي همة همـــة ∴ وأعرف رتبة بالرتـــــــب
وأطعن من مسّ خطيـــة ∴ وأضرب مَنْ بحسام ضـــرب
بذا اللفظ ناداك أهل الثغور ∴ فلبيت والهام تحت القضب
وقد يئسوا من لذيذ الحياة ∴ فعين تغور، وقلب يجب [2]

ومن هذه الموضوعات المثيرة تبادل الأسرى بين المسلمين وأعدائهم فهذا من المواقف الكبرى التي تثير العاطفة، لأنه حدث قوي مؤثر، فمثلاً في عهد هارون الرشيد وبالتحديد سنة ١٨٩ هـــ تم الفداء بين المسلمين والروم، وكان شاملاً لجميع الأسرى (حيث لم يبق بأرض الروم أسيراً إلا فودي به، ولأهمية حدث إطلاق الأسرى، جادت قرائح الشعراء بالتعبير عنه، لما يمثله من نعماء على الجهاد الإسلامي، لا على المجاهد المسلم وذويه فحسب .

ونستطيع أن نقول: إن قوة هذا الموضوع تجعل من الميسور ظهور القصائد والأبيات القوية والرائعة حوله، بل تصبح سمة من سمات شعر الفتوحات الإسلامية وجهاد أعداء الإسلام، كما في قول مروان بن أبي حفصة للرشيد:

---

(١) ديوان أبي تمام ص ١٩ ، وزبطري: منسوب إلى زبطرة ، وهي بلدة أغار عليها الروم ، وبلغ المعتصم أن امرأة قالت: وامعتصماه ، وهي مسبية ، فعلم بذلك .. والقصة معروفة

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي: ج ١ ص ١٠٠ ، وما بعدها .

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها ∴ محابس ما فيها حميم يزورهـــــا

على حين أعَيَ المسلمين فكاكهـا ∴ وقالوا: سجون المشركين قبورها [1]

ومن قوة العاطفة الناشئة من قوة الموضوع، ما نجده في شعر أبي تمام في بائيته الرائعة، حينما صور كيف ذل المنجمون، الذين أشاعوا أنه ليس بمقدور (المعتصم) أن يفتح مدينة (عمورية) الحصينة، إلا في الوقت الذي حددوه لفتحها، ومضوا ينشرون بين الجند بخاصة، وجمهور الناس بعامة، أن تلك الحملة التي قادها خليفة المسلمين منهزمة لاشك في ذلك .

ولكن إرادة الله ــ تعالى ــ شاءت أن ينتصر المسلمون انتصاراً مؤزراً على الرغم من كل الظروف الصعبة التي رافقت تلك الحملة، وكذلك إرجاف المنجمين، ومن تأثر بهم من مغبة تلك المجازفة التي أقدم عليها الخليفة المسلم، الواثق من نصر الله، لأنه يجاهد في سبيله، ويدافع عن حرماته .

وهنا أحس الشاعر المسلم كغيره من المسلمين الصادقين بنشوة الظفر وحلاوة النصر، وراح بفعل عاطفته المتوثبة، يصف كيف أن المنجمين لو كان عندهم من الغيب لبشروا المسلمين بالنصر، أو لصدوا هذا الزحف، يقول:

أين الرواية ؟ بل أين النجوم ومـــــا

صاغـــوه من زخرف فيها ومن كـــذب ؟

تخرصـــاً وأحاديثـــاً ملفقـــــة

ليست بنبع إذا عدت ولا غـــــــرب

عجائباً زعموا الأيـــام مجفـــــلة

عنهن في صفر الأصفـــار أو رجـــب

وخوفوا الناس من دهيـــاء مظلمـــة

إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنـــــب

وصيروا الأبرج العليا مرتبـــــــة

ما كان منقلباً منها أو غير منقـــــلب

---

(١) شعر مروان بن أبي حفصة ص ٦١ .

يقضون بالأمر عنها وهي غـــــافلة

ما دار في فلك منها وفي قطـــــــــب

لو بنيت قط أمـــراً قبل موقعـــــه

لم تخف ما حـــل بالأوثان والصـــــلب[1]

ومن هنا نستطيع الجزم بأن مستوى الإبداع الأدبي الرائع يتوقف على مستوى قوة الحدث نفسه، حيث نرى ذلك (معادلاً موضوعياً) بين قوة الحدث وقوة التعبير عنه، وهو ما أشار إليه الشاعر القديم، عمرو بن معدي كرب الزبيدي بقوله:

فلو أن قومي أنطقتني رماحهـــم ∴ نطقت ولكن الرماح أجـــرَّت [2]

ثالثاً: وهو المحور الأخير، ويدور حول السمو والانحطاط في العاطفة :

وفي هذه الجزئية فإن الاهتمام سوف ينصب على إيضاح غاية الأثر الأدبي وهدفه، وفي ضوء ذلك يمكن وصف النص الشعري بأنه ذو عاطفة سامية أو هابطة، يقول أحد النقاد: " .. يعتمد النقد الأدبي في هذا الباب على درجة العاطفة من حيث سموها أوضعتها، وهذا المقياس أثار خلافاً كثيراً بين النقاد، فهو يشير أولاً إلى أن هناك عواطف سامية وأخرى وضيعة ... " [3] .

ولكن في هذا البحث تكون العاطفة سامية، وعالية القدر، لسبب واضح وهو موضوعه، لأن النص الشعري حينما يوصف بأنه شعر الفتوحات الإسلامية وجهاد أعداء الإسلام فإن من الطبعي أن تتصف عاطفته بهذه الصفة، لأن غايته وجه الله ــ تعالى ــ والدار الآخرة .

فمنذ اللحظة الأولى من المواجهة بين المسلمين وأعدائهم، كان واضحاً أن الحرب بين الفريقين هي حرب عقيدة، فقد شعر هؤلاء الأعداء منذ ظهور الإسلام أنهم أمام زحف عقدي، يأتي على بنيانهم من القواعد، وعلموا أن سلاح العقيدة لا يواجه إلا بسلاح قوي، وعقدي من جنسه،

ففي أيام الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ تمسكوا بالآلهة ودين الأجداد في الجزيرة العربية، وفي أيام الخلافة الراشدة، وبعد أن خرج العرب لنشر الإسلام تمسكت الأمم الأخرى

---

(١) ديوان أبي تمام: ج ١ ص ٤٢: ٥٠ .

(٢) شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي: ص٧٢ ، جمعه: مطاوع الطرابيشي ــ دمشق سنة ١٩٨٥م.

(٣) راجع: أصول النقد الأدبي د . أحمد الشايب ص ٢٠٣ .

بدياناتها القديمة، ودافعت عنها، فكان النصارى الرومان يحاولون مواجهة هذا الدين الجديد بإثارة عصبية الأمة النصرانية، لتقف في وجه انتشار الدعوة الإسلامية في بلاد الروم [1] .

ففي معركة اليرموك عمد القسيسون والرهبان إلى حض الجند على القتال، وكانوا ينعون لهم النصرانية، وكذلك ثبت عدد كبير من كبار الروم وأشرافهم في هذه المعركة، وقالوا لا نحب أن نرى يوم سوء إذا لم نستطع أن نرى يوم السرور [2] .

كان هذا شأن النصارى حينما كانوا في مرحلة التصدي للمسلمين، ومنع الخير لأنفسهم وبلادهم عندما يدخلون في الإسلام، حتى نهاية القرن الرابع الهجري .

ثم دار الفلك دورته، فكان هجومهم على العالم الإسلامي وتدميرهم لمنشآته، وتخريبهم للمساجد وتقتيلهم للعلماء، ونشر الذعر والخراب في بلاد الإسلام، فيما يسمى بالحروب الصليبية، وكانوا في مرحلة التصدي ومرحلة الهجوم يعزفون على وتر النصرانية، ووجوب التضحية من أجلها، وقد ركز الرومان على تأكيد تمسكهم بالنصرانية ليعطوا محاربيهم شعوراً بالثقة بالنفس، إزاء جيوش المسلمين التي تعلن أنها جاءت لنشر عقيدة الإسلام الصافية والتي يتفانى المسلمون في سبيلها، ويبذلون من أجلها دماءهم وأموالهم، فهم في رباط إلى يوم القيامة، وكما قال الله تعالى عن الأعداء: (وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ...) [3] .

وقد واكب الشعر منذ اللحظة الأولى هذه المعركة العقدية بداية من حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة ـــ رضي الله عنهم ـــ ولا يزال مستمراً مادام هناك هذه الحروب وتلك الصراعات بين المسلمين وأعدائهم، كان الشعر وسيظل سلاحاً فعالاً في إثارة عزائم المسلمين وإلهاب حماستهم، وغدا جانباً مهماً في الفتوحات الإسلامية، يتصف بكثير من صفاتها في سموها ونبل غايتها .

---

(١) راجع: تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٢) نفسه ج ٣ ص ٤٠٠ .

(٣) سورة البقرة من الآية (٢١٧) .

ومن هنا كان شعر الفتوحات الإسلامية بعامة يتصف بالسمو في عاطفته لأنه نوع من الجهاد في سبيل الله بالكلمة المعبرة القوية والصادقة، التي تواكب المعارك في ميدان القتال وساحات الحرب وغاية المسلم هنا رضي الله ــ تعالى ــ ولذا لا يتأثر بتخلي الناس عن مساعدته لأنه يؤمن أن الله ــ عز وجل ــ معه .

وأول ما نلتقي به هنا من شعر الفتوحات الإسلامية، وفيه تظهر العاطفة السامية لأن صاحبها تحلّى بالصبر، واحتسب ما يلاقيه من عناء ونضب عند الله، وأيضاً كل ما يصيبه من نقص في الأموال والأنفس، فلا يعقب بعد هذه المصائب جزع ولا فزع، بل تسليم تام، ورضى نادر المثال، ورضوخ لمشيئة الله تعالى، وهذا ما نلاحظه في شعر كعب ابن مالك ــ رضي الله عنه ــ حينما رثى شهداء مؤتة:

صلى الإله عليهم من فتية ∴ وسقى عظامهم الغمام المسبل

صبروا (بمؤتة) للإله نفوسهم ∴ حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

فمضوا أمام المسلمين كأنهم ∴ فنق عليهن الحديد المرفل [1]

ومن دلائل سمو العاطفة في هذا الشعر ــ الفتوحات ــ ما نجده في الغاية النبيلة التي يحرص عليها المسلم الذي يلي أمر المسلمين وهو الخليفة، هذه الغاية هي رضى الله والفوز بالشهادة عند كثير منهم، فسيف الدولة مثلاً ــ في نظر مشاعره ــ يقف وحده في الميدان، ينافح عن دين الله وكأنما هو وحده الذي آمن بوحدانية الله وشمر عن ساعد الجد مجاهداً في سبيله، بينما قعد عن الجهاد كثير من المسلمين عجزاً وتكاسلاً أو خوفاً من الأعداء، أو على مناصبهم، وأرى أن الشاعر يقصد ولاة الأمور غير سيف الدولة، فمعظم القادة والأمراء في ذلك الوقت لم يكن مثله في الجهاد.

أرى المسلمين مع المشركين ∴ إما لعجـــز، وإما رهب

وأنـــت مع الله في جـــانب ∴ قليل الرقاد كثـــير التعب

كأنك وحـــدك وحـــدَّه ∴ ودان البرية بابن وأب [2]

---

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٦١ ، وانظر: البداية والنهاية ٤ / ٢٦١ ، والفنق جمع الفنيق وهو فحل الإبل.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ج ١ ص ١٠٤ .

وهو يشير إلى عقيدة بعض النصارى وهي التثليث وكما يقول بعضهم باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد آمين، وهذا مخالف لما جاء على لسان عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فأول كلمة نطقها وهو في المهد ــ كما جاء في القرآن الكريم ــ اعترافه بعبوديته لله تعالى: [قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً]، [وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ] (١).

ويؤكد ابن هانئ على إخلاص النية لله، وأن المعز قد بذل كل طاقته في سبيل الله والدفاع عن حرماته، وتحركت فيه العاطفة الإسلامية فغضب لما أصاب المسلمين في بلاد الشام، فعزم على جهاد هؤلاء الأعداء، يقول ابن هانئ:

ألا في سبيل الله تبذل كل ما ∴ تضن به الأنواء وهي جمود
فلا غرو أن أعززت دين محمد ∴ فأنت له دون الأنام عقيد
وباسمك تدعوه الأعادي فإنهم ∴ يقرون حتماً والمراد جحود
غضبت له أن ثل بالشام عرشه ∴ وعادك من ذكر العواصم عيد
فبت له دون الأنام مسهداً ∴ ونام طليق خائن وطريد (٢)

كان هذا من جانب القائد المسلم، أما من جانب المقاتل المسلم فيؤكد كذلك ابن هانئ أن يدفع الجندي إلى الإقدام في الحرب وخوضه غمار المعركة، هو إحساسه اليقيني أن الله معه، وأنه سينصره نصراً عزيزاً ما دامت عزيمته قوية صادقة، يقول:

أما والجواري المنشآت التي سرت ∴ لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما تزجي القباب على المها ∴ ولكن من ضمت عليه أسود
ولله مما لا يرون كتائب ∴ مسومة تحدو بها وجنود
أطاع لها أن الملائك خلفها ∴ كما وقفت خلف الصفوف ردود

---

(١) سورة مريم آية رقم (٣٠) ورقم (٣٦) .

(٢) ديوان ابن هانئ ص ١٠١ ، مفردات العقيد: المعاهد ، ثَلّ: هدم وكسّر ، العواصم: حصون منيعة بين حلب وأنطاكية كانوا يعتصمون بها ، وهو يشير إلى تغلب الروم على المسلمين في تلك النواحي قبل هذه الحرب .

وأن الرياح الذاريـــات كتائب ∴ وأن النجوم الطالعـات ســعود

إلى أن يقول في هذه القصيدة:

من القادحات النار تضـــرم للطُّلى ∴ فليس لها يوم اللقـاء خمـــــود

إذا زفرت غيظاً ترامت بمـــارج ∴ كما شب من نار الجحيم وقود [1]

وبهذا الصوت الواثق بالنصر، وهذه العاطفة السامية تسير القصيدة بنبرة قوية تناسب الموقف وتوائمه، ومن هذا المنطلق، قد داخل ملك الروم (الدمستق) الرعب والخوف، حينما تجلت له هذه القوة، المؤيدة بآيات الله ـــ تعالى ـــ وجنوده في نصر المؤمنين وبات جميع ما يعده حربهم لا قيمة له، ولذا فرَّ هارباً .

ألقى الدمستق بالصلبان حين رأى ∴ ما أنزل الله من نصر وتأييد [2]

وشاعر آخر وهو أبو العباس النامي يصرح باشتراك الملائكة مع المؤمنين في قتال الكفار، ولعله بنى ذلك ثقة منه بوعد الله تعالى بإمداد المؤمنين بالملائكة التي من شأنها تثبيت المؤمنين والقتال معهم، وقد وردت في ذلك آيات من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: " إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ... " [3] .

يقول أبو العباس النامي مخاطباً سيف الدولة الحمداني:

يا مظمئ الخيل أو تروي ذوابله ∴ والخيل تشرب من أشداقها اللجم

إذا ملائكة النصر اختلطت بها ∴ تشابه العـالم النوري والنسم [4]

ويقول كذلك ابن حزم الفقيه الشاعر، عن الملائكة، وتأييدهم للمؤمنين:

ومن دون قبر المصطفى وسط طيبة ∴ جموع كمُسودٍّ من الليل فاحـم

يقودهم جيش الملائكة العـــلى ∴ كفاحاً ودفعاً عن مصل وصائم [1]

---

(١) انظر ديوان: ابن هانئ ص ٩٨ ، وما بعدها ، ط / دار صادر .

(٢) انظر ديوان ابن هانئ ص ٩٣ وما بعدها ، ط / دار صادر .

(٣) سورة الأنفال الآية رقم (١٢) .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٢٤٣ .

ومن سمو العاطفة في شعر الفتوحات الإسلامية، ما يؤكده هؤلاء الشعراء بأن تلك المعارك الدائرة بينهم وبين أعدائهم، هي بين الكفر والإيمان، فهم المؤمنون حقاً، وأعداؤهم قد رضوا بالكفر، فهم يقتلونهم لكسر شوكتهم التي تمثل الكفر، فالدافع ليس مادياً، ولا عصبية قبلية أو عرقية، بل هو دافع إيماني يتحدد في السعي لأن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ومن هذا المنطلق يخاطب أبو تمام الخليفة المعتصم بقوله:

أبقيت جد بني الإسلام في صعد ∴ والمشركين ودار الشرك في صبب [٢]

بل استمع إلى المتنبي في هذا المعنى، عندما يخاطب الخليفة:

فلست مليكاً هازماً لنظيره ∴ ولكنك التوحيد للشرك هازم [٣]

ويصور المتنبي ـــ كذلك ـــ ممدوحه المسلم في صورة وحش أسطوري، يفتح فمه ليلتقم الجيوش الجرارة ويأكلها، فتكون بمثابة اللقمة السائغة والطعام الشهي، مهما كانت عظمتها وقوتها، إنه يقول مهدداً الروم:

أغركم طول الجيوش وعرضها ∴ عليّ شروبٌ للجيوش أكول [٤]

ويستوقفنا البحتري في قصيدته التي مدح بها، يوسف بن محمد الثغري، قائلاً له:

ولو احتضنتهم بأيدك لالتفت ∴ من خلف أمواج الخليج يداك [٥]

إنها الصور الملحمية التي تجعل من القائد المسلم، مخلوقاً غير عادي، يفترس المدن ويقضمها بأنيابه الحادة، ويمزقها بمخالبه، ويفتح فاه فيبتلع الجيوش القوية كثيرة العدد، ويمد يديه فيحتضن البحار ـــ وهذه من بعض المبالغات التي تقبل في مثل هذا الشعر الذي يصدر عن هذه العاطفة .

إن مثل هذه الصفات التي أسبغها الشعراء على القائد أو الجندي المسلم، تجعل صورته وشخصيته أسطورية محضة، مغرقة في الخيال، لكنها مع ذلك تظل صورة فنية رائعة الدلالة في المعنى

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، تحقيق الطناحي وآخرين ج ٣ ص ٢١٨ .

(٢) ديوان أبي تمام ج ١ ص ٥٢ .

(٣) ديوان أبي الطيب ج ١ ص ٣٩١ .

(٤) السابق ج ٣ ص ١٠٧ .

(٥) ديوان البحتري ج ٣ ص ١٥٦٦ .

الذي تعبر عنه، ولاشك أن ندرة ذلك النوع من الصور، تعبر بجلاء عن سمة الذوق الأدبي عند العرب، مما يجعل من أمثالها يبدو كوميض خاطف في القصيدة كلها .

وفي تأكيد قوة الممدوح النادرة، يقول البحتري ـ أيضاً ـ مخاطباً قائده الثغري :

وسقت الذي فوق المعاقل منهـــم ∴ فلم يبق إلا أن تسوق المعاقلا [1]

فهو يثني على بلاء ممدوحه، وقوته في الانتصار على أعدائه، وأسرهم، وإحكام قبضته عليهم، تجعلهم لا يفلتون من يديه، ولا يستطيعون الهرب منه، ولو كانت المعاقل تساق لساقها إليه هي الأخرى .

وقد أحسن الشاعر حين لم ينسب إلى ممدوحه أنه ساق حصونهم، لأنها ستكون حينئذ صورة مسرفة في تجاوز الحد المعقول والمقبول، وكان الذوق السليم مجها ورفضها، لكنه وضح الصورة وقال: إن المعاقل لا تساق، ولو أمكن نقلها وإزاحتها عن مكانها لما أبقاها ذلك البطل المسلم في مكانها، ولفعل بها ما فعله بأصحابها الذين ساقهم أمامه وأصبحوا أسرى وسبايا .

وشاعر آخر ـ هو السرى الرفاء ـ ينسب مشاعر الخوف والرهبة من البطل المسلم للحصون المنيعة ـ وهي جماد لا تحس أو تعقل !! مما يجعلها تسلّم أهلها والمتحصنين بها، خوفاً على نفسها من الممدوح، وكأنها تدرك إن لم تفعل ذلك رماها بكل قوته حتى يهدمها، ويزيلها من طريقه، ليصل إلى أهلها من البشر، يقول الشاعر في ذلك المعنى:

إذا رمى بـــلداً منـــــــه بجائحة ∴ خرت أعاليه وارتجت أسافـــــله

حتى تؤدي الحصون الشم ساكنها ∴ خوفاً، وتسلم من فيها معاقله [2]

ونرى المتنبي في واحدة من صوره الخيالية الجموحة، يقول في نفس المعنى والعاطفة:

تمل الحصون الشم طول نزالنا ∴ فتلقى إلينا أهلها وتزول [3]

فمثل هذه الصور الفنية الرائعة، تبين أن أثر قوة المسلمين، ليس واضحاً على جند الأعداء فحسب، بل يتعداه إلى حصونهم القوية العالية البنيان، تلك التي لا تلبث أن تلقى بأهلها مستسلمة

---

(١) ديوان البحتري ج ٣ ص ١٦٠٢ .

(٢) ديوان السرى الرفاء (القدس) ص ٢٢٣ .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ج ٣ ص ١٠٣ .

ذليلة، وتزوي عن طريقهم، خاذلة لأهلها، وتنأى بنفسها عن مواجهة مثل هؤلاء الجنود والقواد الشجعان، الذين باعوا أنفسهم لله ــ تعالى ــ وفي سبيل رضوانه، وكما صور الشاعر المسلم عزة وكبرياء الجندي المسلم وقائده، وتكلم عن قوته وانتصاراته صور ذلة قواد وملوك الشرك، وبين ضعفهم واستكانتهم، ومن هذا الشعر ما قاله البحتري، عندما وصف ذلة ملكة الروم حين طلبت الهدنة من قائد الثغور أبي سعيد الثغري، ويذكر كيف أعز الله الإسلام بذلك البطل، وأذل به الأعداء:

خطبت إليك السلم ربة ملكهم ∴ لو كان يطلب نائل من مسعف
وكأنني بك قد أتيت بعرشها ∴ والسيف أسرع هبة من آصف
أنزلت بالإنجيل ثم بأهله ∴ ذلاً أراهم عز أهل المصحف
أسخطته بالبارقات وإنما ∴ أرضيته لو كان غير محرّف [1]

ويثني الشاعر نفسه على الخليفة المتوكل، لأنه عصم الثغور من أعداء الإسلام وأحاط دين الله حياطة، حالت بين الكفار، وبين أن ينالوا المسلمين بسوء:

لقد لجأ الإسلام من سيف جعفر ∴ إلى صارم في النائبات حسام
يسد به الثغر المخوف انثلامه ∴ وإن رامه الأعداء كل مرام
إليك ــ أمين الله ــ مالت قلوبنا ∴ بإخلاصِ نُزَّاعٍ إليك هيام
حلفت بمن أدعوه رباً ومن له ∴ صلاتي ونسكي ــ خالصاً وصيامي
لقد حطت دين الله خير حياطة ∴ وقمت بأمر الله خير قيام [2]

ويقول السري الرفاء، في نفس المعنى:

قد قلت إذ فيك عز النصر وانتشرت ∴ صحائف الفتح واحتشت ركائبه
اليوم صان رداء الملك لابسه ∴ وشلت الحرب يمنى من يحاربه
فأصبح الدين قد ذلت لصولته ∴ كتائب الشرك إذ عزت كتائبه [1]

(١) ديوان البحتري ج ٣ ص ١٤١٦ .
(٢) ديوان البحتري ج ٣ ص ١٤١٦ .

ومن خلال هذا العرض السريع لعنصر السمو في العاطفة، يتضح أنه عنصر بالغ الأهمية في الدراسة النقدية، لأنه مرتبط بتحديد غاية الشاعر وهدفه، والحكم على تلك الغاية وذلك الهدف، بالسمو والرفعة، أو الانحطاط والضعة، وقد رأينا أن السمة العامة لشعر الفتوحات الإسلامية وجهاد أعداء الإسلام، أنه شعر سامٍ ونبيل، يؤكد جلال الروح الإسلامية وعظمتها في الترفع عن الأغراض الدنيوية الرخيصة .

(١) ديوان السرى الرفاء (الحسنى) ج ١ ص ٣٧٨ .

" من أهم مصادر ومراجع البحث "

أولاً: القرآن الكريم ــ عز من أنزله ٠

ثانياً: المراجع:

١ ــ أسس النقد الأدبي، د ٠ أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر القاهرة سنة ١٩٩٤ م ٠

٢ ــ الأسلوب، د ٠ أحمد الشايب ــ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ط / ٧ سنة ١٩٧٦ م ٠

٣ ــ الإصابة للحافظ بن حجر (ت ٨٥٢ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ، وطبعة، دار الغد العربي بتحقيق طه عبد الرءوف سعد، بدون تاريخ ٠

٤ ــ أصول النقد الأدبي، تأليف أحمد الشايب الأستاذ بجامعة القاهرة سابقاً، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٣ م ٠

٥ ــ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: طبعات: دار الثقافة، بيروت سنة ١٩٥٦ م، دار الكتب المصرية، بتحقيق مصطفى السقا سنة ١٣٨١ هـ، ودار الكتب بتحقيق عبد السلام هارون سنة ١٣٧٩ هـ ٠

٦ ــ البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت ط / سنة ١٩٦٦ م، وطبعة دار الغد العربي ط / أولى سنة ١٩٩١ م ٠

٧ ــ البيان والتبيين للجاحظ (وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) تحقيق عبد السلام هارون ــ القاهرة، سنة ١٣٩٥ هـ ٠

٨ ــ بين الأدب والنقد، د ٠ محمد نايل و د ٠ محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الأزهر، ودار الطباعة المحمدية ٠

٩ ــ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط / دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٧٩ م ٠

١٠ ــ تاريخ فتوح الشام، لمحمد عبد الله الأزدي (ت ١٧٥ هـ) تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر ط / سجل العرب، القاهرة ٠

١١ ــ تاريخ النقد الأدبي عند العرب: الدكتور: إحسان عباس ط / دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٧٨ م .

١٢ ــ التعريفات لمحمد بن علي الجرجاني (ــ ٨١٦ هـ) تحقيق د . عبد الرحمن عميرة ط / عالم الكتب، بيروت، سنة ١٤٠٧ هـ .

١٣ ــ ديوان أبي تمام (شرح ديوان أبي تمام، ضبطه وشرحه الأديب: شاهين عطية، ط / دار الكتب العلمية ، ب يروت سنة ١٩٩٢ م، وأيضاً، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، ط: دار المعارف، سنة ١٩٨٣ م .

١٤ ــ ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط: البابي الحلبي ــ القاهرة سنة ١٩٩١ م .

١٥ ــ ديوان أبي فراس الحمداني، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر ط: دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٩٩٣ م، ــ أيضاً ــ تحقيق د . سامي الدهان، ط / المعهد الفرنسي بدمشق وبيروت سنة ١٣٦٣ هـ .

١٦ ــ ديوان ابن هانئ ط / دار صادر بيروت بدون تاريخ، وأيضاً: تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ، تحقيق: زاهد علي ــ ط / مطبعة المعارف بالقاهرة، سنة ١٩٥٢ م .

١٧ ــ ديوان البحتري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ط / دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧ م، ذخائر العرب ٣٤ .

١٨ ــ ديوان حسان بن ثابت، تحقيق د . سيد حنفي حسين ط / الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٤ م، وديوان حسان بن ثابت شرحه، وكتب هوامشه وقدم له أ . عبده أ . مهنا ط / دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، سنة ١٩٨٦ م .

١٩ ــ ديوان السري الرفاء، تحقيق د . حبيب الحسني ط . دار الرشيد، بغداد سنة ١٩٨١ م و ط / مكتبة القدس بالقاهرة سنة ١٣٥٥ هـ .

٢٠ ــ ديوان عبد الله بن رواحة، تحقيق د . وليد قصاب، ط: دار العلوم سنة ١٩٨٢ م .

٢١ ــ ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق . سامي مكي العاني، ط / مكتبة النهضة بغداد سنة ١٩٦٦ م .

٢٢ ــ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، لعبد الرحمن السهيلي (ــ ٥٨١ هـ) تحقيق عبد الرحمن الوكيل ط٠ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة سنة ١٣٨٧هـ٠

٢٣ ــ السيرة النبوية لأبي محمد: عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: أحمد حجازي السقا، ط ٠ دار التراث العربي ــ القاهرة سنة ١٩٧٩ م، و ط / دار الفكر، القاهرة، وقد راجع أصول هذه الطبعة وعلق على حواشيها: نخبة من العلماء بدون تاريخ ٠

٢٤ ــ شرح ديوان صريع الغواني (مسلم بن الوليد) تحقيق: د ٠ سامي الدهان ط / دار المعارف ٠

٢٥ ــ شعر مروان بن أبي حفصة، تحقيق: د ٠ حسين عطوان ط ٠ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣ م ٠

٢٦ ــ الصبح المبني عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي (ــ ١٠٣٧ هـ) تحقيق مصطفى السقا، ومحمد شتا وعبده زياد عبده، ط / دار المعارف مصر سنة ١٩٦٣ م (ذخائر العرب ٣٦)٠

٢٧ ــ طبقات الشافعية الكبرى، لعبد الوهاب بن علي السبكي (ــ ٧٧١ هـ) تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، ط / عيسى البابي الحلبي ــ القاهرة سنة ١٩٦٥ م ٠

٢٨ ــ الشعر والشعراء، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ــ ٢٧٦ هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ط ٠ دار المعارف مصر سنة ١٩٦٦ م ٠

٢٩ ــ فن الشعر لأرسطو، ترجمة الدكتور: عبد الرحمن بدوي ط / دار الثقافة سنة ١٩٧٣ م ٠

٣٠ ــ في النقد الأدبي عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري د ٠ محمد طاهر درويش ط / دار المعارف ــ مصر سنة ١٩٧٩ م ٠

٣١ ــ الكامل في النقد الأدبي لكمال أبي مصلح ط / المكتبة بيروت سنة ١٩٦٧ م ٠

٣٢ ــ كتاب فتوح البلدان لأحمد بن جابر البلاذري (ــ ٢٧٩ هـ) تحقيق د٠ صلاح الدين المنجد ط / مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ ٠

٣٣ ــ لسان العرب، لجمال الدين بن منظور (ــ ٧١١ هـ) ط/ دار المعارف بمصر٠

٣٤ ــ مجالس ثعلب، لأبي العباس ثعلب (ــ ٢٩١ هـ) تحقيق عبد السلام هارون، ط / دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩ م .

٣٥ ــ مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق . محمد محي الدين عبد الحميد، ط / المكتبة التجارية، القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

٣٦ ــ معجم البلدان، لياقوت الحموي (ــ ٦٣٦ هـ) ط / دار صادر، بيروت، بدون تاريخ .

٣٧ ــ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، نجدي وهبة، وكمال المهندس ط / مكتبة لبنان، بيروت سنة ١٩٨٤ م .

٣٨ ــ من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، د / محمد خلف الله أحمد، ط / دار العلوم ــ الرياض سنة ١٤٠٤ هـ .

٣٩ ــ موسوعة علم النفس، د . أسعد رزوق ط / المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت سنة ١٩٧٧ م .

٤٠ ــ النقد الأدبي الحديث (أصوله واتجاهاته) د . أحمد كمال زكي ط / دار النهضة العربية، بيروت سنة ١٩٨١ م .

٤١ ــ نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر (ــ ٣٢٠ هـ) تحقيق: كمال مصطفى ط / مكتبة الخانجي ــ القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

٤٢ ــ يتيمة الدهر، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ــ ٤٢٩ هـ) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط / المكتبة التجارية، القاهرة سنة ١٣٧٥ هـ، وتحقيق مفيد محمد قميحة ط/ دار الكتب العلمية، بيروت لبنان سنة ١٩٨٣م.

هذا . والله أعلى وأعلم، وهو حسبي ونعم الوكيل